@Hitham_ambusaidi

احتياج

رواية إلكترونية

بقلم:

زهرة الصبا

احـــتـــيـــاج

إهداء

قد تضيق الدنيا كلها على المرء بينما يسعه حضن

فداووا الاحتياج بالاحتواء.

إلى أولئك الذين يجيدون الاحتواء حتى في أشد أوقاتهم حاجة.

احـــتـــيـــاج

رفعت ياسمين نظرها إلى الساعة المعلقة على الحائط أمامها ثم نادت السكرتيرة قائلة:

- أدخلي شخصا واحدا فقط يا هنادي، أما البقية فحولي مواعيدهم إلى الغد.
- حسنا أستاذة ياسمين.

بعد لحظات دخلت امرأة خمسينية يبدو من مظهرها الثراء الفاحش، نظرت إلى ما حولها بفوقية ثم ركزت بصرها على ياسمين وثبتت نظرها عليها للحظات كأنها تفحصها ثم ما لبثت أن افترت شفتاها عن ابتسامة رضا لا تخلو من العجرفة وقالت :

- سمعت أنك أحسن طبيبة نفسية هنا في المدينة، لذا قررت أن أقصدك.

ابتسمت ياسمين ابتسامة فاترة قائلة:

- تفضلي سيدتي أرجو أن أكون عند حسن ظنك.

جلست المرأة على الكرسي بجانب المكتب ثم مدت يدها لتصافح ياسمين فمدت يدها هي الأخرى لتصافحها، قالت المرأة:

- مدام هدى.. أرجو أن تناديني مدام هدى.
- مرحبا مدام هدى تفضلي كيف أخدمك؟
- لا أدري كيف أبدأ الكلام فأنا لم أزر طبيبا نفسيا من قبل.

ابتسمت ياسمين ابتسامة صادقة هذه المرة لأنها أحست أن هذه المرأة قد بدأت تتخلى شيئا فشيئا عن عجرفتها، ثم قالت:

- لا بأس سيدتي، تفضلي معي إلى السرير وسيكون كل شيء على ما يرام.

احـــتـــيـــاج

استلقت السيدة هدى على السرير وجلست هي على كرسي أمامها تدون على كراستها ما تحتاجه من ملاحظات، بدأت بالكلام لأنها كانت تعلم جيدا أن هاتين الشفتين المزمومتين لن تبدآ بالكلام أبدا:

- حسنا مدام هدى، من أين تريدين أن تبدئي ؟
- من أول القصة من طفولتي.

ابتسمت ياسمين ابتسامة جميلة لم تفت مدام هدى التي لاحظت أنها تبدو أكثر جمالا عندما تبتسم، كانت ملامحها متناسقة بعينين زرقاوين واسعتين، شفتان حمراوان طبيعيتان وأنف دقيق ورموش سوداء طويلة وخمار أسود زاد من جمال ملامحها فكانت كأنها البدر ليلة اكتماله، كما لم يفتها أبدا أنها لم تكن تستعمل مستحضرات تجميل، تمتمت مبتسمة:

- مناسبة تماما.
- ما المناسب مدام هدى؟
- أفضل ألا تقاطعيني دكتورة إلا إذا دعت الضرورة لذلك، مع أني أفضل ألا تقاطعيني أبدا.

كتمت شعورها بالضيق من تصرفات هذه المرأة ثم قالت :

- تفضلي مدام هدى أنا أسمعك.
- لا يغرنك مظهري الصارم هذا فقد كانت لدي في يوم من الأيام نفس النظرة الحالمة التي في عينيك، وكانت لدي أحلام كهذه التي تتراقص في عينيك الجميلتين، ولكني حرمت منها كلها.

احـــتـــيـــاج

تنهدت السيدة هدى ثم واصلت:

- ذات مساء بينما كنت عائدة من الثانوية ممتلئة حتى التخمة بأحلام حكتها مع أحمد؛ زميلي في الفصل والشخص الوحيد أحببته في هذه الحياة ، حبي الأول الذي لم أستطع نسيانه رغم مرور كل هذه السنوات وجدت أبي في البيت مع مروان أو العم مروان كما كنت أسميه؛ كهل تخطى الخمسين من عمره غطى الشيب فوديه.

كان أبي يقول له:

- حسنا لم يبق أمامها الكثير، فقط أسبوعان لتجتاز الامتحانات النهائية ثم يمكننا بعدها الحديث عن موعد الدخلة.

لم أفهم مالذي كان يقصده والدي بالضبط ولكني تراجعت في صدمة وركضت خارجا لا أدري إلى أين، كنت أركض وأركض وأنا أسترجع نظرات مروان الوقحة لي مؤخرا، نظراته الشهوانية المقززة وهو يقول لوالدي:

- هدى كبرت يا عبد الرحمان، أصبحت امرأة .

ثم رد أبي:

- نعم يا مروان، هدى كبرت وستحقق حلم والدها وتصبح دكتورة قريبا.

نعم كان هذا رد والدي الذي يحلم منذ أن كنت طفلة صغيرة باليوم الذي سأكون فيه طبيبة، كيف إذا كان يتحدث عن الدخلة؟ دخلة من؟ عن أي دخلة يتحدث والدي؟

احـــتـــيـــاج

حدثت نفسي بصوت مسموع:

هدى الحاج عبد الرحمان الذي يحبك لن يفعل هذا بك، ثم استدرت عائدة إلى البيت وكلي ثقة بوالدي؛ لن يبيعني أبدا.

دخلت البيت مرة أخرى، كان مروان يستأذن بالخروج، نظر إلي نظرة وقحة من أعلى رأسي إلى أخمص قدمي، ثم أمسك بخدي وانحنى ليقبلني، تراجعت إلى الخلف مذعورة ودوت صرخة والدي خلفه:

- ليس الآن يا مروان.

أفلت خدي ثم ابتسم ابتسامة مقززة وخرج، نظرت إلى والدي وعيناي تحملان ألف سؤال، ولكنه استقبل نظراتي الحائرة بنظراته الحانية وفتح ذراعيه لأجد نفسي أركض لأحتمي بحضنه، أمسك وجهي الصغير بيديه الكبيرتين ونظر إلى عيني الزمرديتين بعمق وقال:

- أسبوعان، لا أستطيع أن أحميك أكثر من ذلك، أسبوعان تكملين فيهما امتحاناتك لكي لا يضيع حلمك ثم لن أستطيع أن أحميك بعدها أبدا.

زفر بشدة ثم أكمل:

- اهربي يا هدى !، ستهربين في اليوم الذي ستكملين فيه امتحاناتك، وسأحاول أن أؤمن لك مكانا لن يعثر فيه مروان عليك.

سألته:

- بابا ماذا يريد مروان مني، لماذا يريد أن يعثر علي؟.

احـــتـــيـــاج

أجابني:

- يريدك، يريد أن تكوني زوجته، منذ سنوات وهو يصر وأنا أتحجج تارة بعمرك وتارة أخرى بدراستك، ولكن هذه الأعذار لم تعد تقنعه، إنه مصر أكثر من أي وقت مضى!.

شعرت بمغص في بطني ورغبة شديدة في إخراج كل ما فيها، ولكني تجاهلت ذلك الشعور وسألته ببراءة :

- ولكن لماذا لا تخبره بأني أرفضه لينتهي الأمر!؟.
- من قال إنه سينتهي؟ إنه قوي يا ابنتي قوي وقلبه أقسى من الحجر؛ يستطيع أن يقتل، أن يدمر أن يفعل أي شيء مقابل ما يريد، وأنا لا أستطيع مجابهته ولا أستطيع حمايتك منه، وحتى إن قدمت روحي له فلن يرضى، هو يريدك ولن يرتاح حتى يحصل عليك.

كنت أريد أن أفهم، أن أسأل أكثر، ولكن أبي أنهى الكلام بيننا بحركة واحدة من يده، ثم أمرني أن أنسى الأمر برمته، لأن الحيطان لها آذان كما أخبرني، تحاملت على نفسي كي أنسى ولكني لم أقدر، كنت أراه في منامي، هو بابتسامته المقيتة ونظراته الشهوانية؛ كنت أراه كل ليلة وهو يعريني بنظراته ويداه القذرتان تمتدان لتلمساني، فأصرخ وأصرخ إلى أن أستيقظ فزعة والعرق ينز من كل نقطة في جسمي.

مرالأسبوعان ببطء شديد وفي صباح الامتحان الأخير وجدت والدي ينتظرني أمام باب غرفتي صباحا، أعطاني ورقة بيضاء صغيرة مطوية وضعها داخل يدي ثم قال :

- هذا هو العنوان، اهربي ولا تنظري خلفك أبدا.

احـــتـــيـــاج

كنت أريد أن أرفض، أن أصرخ، أن أقول أني لا أريد تركه والذهاب إلى أي مكان ولكنه وضع يده على فمي وقال :

- اذهبي! لا أريد أي اعتراض، سأكون بخير وسألحق بك لا تقلقي!.

سرت ناحية الباب وعندما وصلت إليه استدرت لأواجهه، كان يبكي ولا أدري لماذا شعرت بأن عينيه كانتا تودعانني، كنت أريد أن أركض إليه وأقبل راحتيه وأرتمي بين يديه ولكنه صرخ في قائلا:

- اذهبي ! وإياك أن تترددي!.

ثم أردف:

- حتى إن قال إنه قد قتلني إياك أن تصدقيه! هو لن يستطيع إيذائي، لا تقلقي ! اهربي ولا تنظري خلفك أبدا.

كنت أعلم أن أبي يكذب وأن مروان يستطيع إيذاءه، ولكني كنت بحاجة لأن أصدقه، كنت أموت خوفا بمجرد التفكير في أن يدي مروان القذرتين ستمتدان لتلمساني كما يحدث في كل كوابيسي مؤخرا.

ذهبت إلى الامتحان خائفة لا أدري ماذا أفعل، وعندما خرجت فتحت الورقة التي أعطاني إياها، وعندما رحت أقرأ ما كتب عليها شعرت بيد تربت على كتفي، ظننت أنه أحمد؛ ولكنه كان غاضبا مني لأني تجاهلته كل الأسبوعين الماضيين دون أن أوضح له الأمر، كنت خائفة من ردة فعله وكنت خائفة عليه من مروان .

استدرت ولكن عوض أن تقع عيناي على ملامح أحمد الناعمة، وقعت على ملامح مروان القاسية!

احـــتـــيـــاج

أردت أن أصرخ ولكن نظرة واحدة إلى عينيه السوداوين المليئتين بالشر جعلت الرعب يستبد بي والخوف يعقد لساني!

خرج الصوت من بين شفتيه كالفحيح:

- إن حاولت الهرب أو حتى فكرت فيه فستصلك أنباء موت والدك أينما كنت.

واصل بعد أن تأكد أن كلماته لمست الهدف الذي يريده :

- هذا المساء في منزل والدك سأحضر الإمام ونعقد قراننا، لا أريد لوالدك أن يعرف شيئا عن لقائنا هذا، كلمة واحدة تخرج من فمك الجميل هذا تساوي حياته!.

دفعته عني في قرف ثم ركضت لا أكاد أرى الطريق أمامي، بعد مدة لا أعرف مداها وجدت نفسي في مكان أجهله، حاولت التعرف عليه فسرت في إحدى الاتجاهات ولكن مروان اعترض طريقي وعلى شفتيه ابتسامة مقرفة، ركضت في الاتجاه الآخر فوجدت أحد رجاله يقطع طريقي، كنت كلما ركضت في اتجاه وجدت أحد كلابه أمامي، استسلمت وتوقفت عن المحاولة، اقترب مني حتى كاد وجهه يلامس وجهي وقال:

- اعتقدت أنك تحبين والدك، ولكن تبين لي أنك لا تحبين إلا نفسك يا صغيرتي.

دفعته، بصقت عليه وشتمته، ابتعد عني كالملسوع وهو يمسح وجهه في قرف قائلا:

- اللعنة عليك أيتها العاهرة الصغيرة، سأريك.

احـــتـــيـــاج

صفق بيديه ونظرة قرف تطل من عينيه، ثم مالبث أن جاء رجلان من رجاله يجران شخصا ما إن رأيته حتى استبد بي الذعر من رأسي حتى أخمص قدمي، كان هذا الشخص أحمد، تمنيت كثيرا أن أكون مخطئة ولكني لم أكن.

وقف ينظر إلي وفي عينيه نظرة حائرة تائهة وخائفة، كانت ملامحه الوسيمة تحمل رعب الدنيا كلها في تفاصيلها وبياض وجهه العاجي استحال صفرة مميتة، قال مروان في غل:

- إذا تظنين أن الأمر كله مزحة أليس كذلك أيتها العاهرة الصغيرة.
آ صحيح ذكريني، أليس هذا الغر الصغير حبيبك؟.

ضحك ضحكة شيطان انبعث من عمق الجحيم وأمسك مسدسه وصوبه ناحية أحمد، ثم دون أن ينتظر أية ردة فعل مني أطلق النار على رأسه ليسقط أمام عيني غارقا في دمائه، صرخت وصرخت حتى شعرت أن حبالي الصوتية تمزقت ثم غبت عن الوعي.

استيقظت بعد فترة لأجد نفسي في غرفة غريبة علي، نظرت ناحية يميني فوجدته جالسا إلى جانبي، حاولت أن أصرخ فوضع يده على شفتي وقال:
- الرصاصة الثانية ستكون في رأس والدك.

كنت أعلم أنه لم يكن يمزح وكان الرعب قد شل تفكيري نهائيا، واصل بعد أن تأكد من أنه قد تمكن من إخضاعي:

- ستنفذين ما قلته حرفيا وإلا لن تري والدك مرة أخرى يا ...

احـــتـــيـــاج

ثم ضحك ضحكة مقرفة وأكمل:

- صغيرتي.

كانت الدموع تنساب من عيني هدى غزيرة وكانت ياسمين تسجل على دفترها بعض الملاحظات والدموع تنساب من عينيها هي الأخرى، فقصة هدى ذكرتها بحالة والدها، نظرت إلى الساعة مرة أخرى ثم قالت:

- مدام هدى أظن أن هذا يكفي لليوم لقد أجهدت نفسك كثيرا ويجب أن ترتاحي نكمل غدا إذا شئت.

مسحت هدى دموعها ثم قالت بصوت مبحوح:

- غدا في مثل هذا الوقت.

فوافقتها ياسمين بإيماءة من رأسها.

قامت هدى -التي رغم بدانتها الملحوظة ماتزال تحتفظ بجمال لافت- واتجهت نحو الباب تنهدت ياسمين بعمق ثم خلعت مئزرها وارتدت سترتها وخرجت من مكتبها.

كانت الأمطار غزيرة في الخارج فواجهت صعوبة في إيجاد سيارة أجرة، ولكنها عثرت على واحدة في الأخير، ركبتها واتجهت إلى المنزل.

وصلت إلى منزلها واتجهت نحو غرفة والدها، فتحت الباب ولاقته بابتسامتها الجميلة كعادتها، كان ممددا على السرير فحياها بابتسامة خفيفة ظهرت ثم اختفت فجأة:

قالت:

- مرحبا بالبطل.

- لم يبق من بطلك إلا الآثار.

احـــتـــــيـــاج

- بل مازلت بطلي والرجل الأول في حياتي وستبقى كذلك.

ابتسم في شحوب وقال:

- هذا قبل أن يدخلها قصي.

احمرت وجنتاها عند ذكر قصي وقالت:

- أنت تعرف جيدا أنه لن يكون في مكانتك أبدا ولكنك تستمر في إعادة نفس الكلام.

قالتها ممثلة دور المستاء ثم غمزته بشقاوة فقال مجاريا إياها:

- ماذا أفعل أنا أغار منه، لهذا أتأكد كل يوم أني مازلت أحتل مكانة أعلى منه في قلبك!
- لن يأخذ أحد مكان هذا العجوز الوسيم أبدا ما حييت.

ابتسم الحاج محمود لكلامها وشعر بسعادة لا مثيل لها لأنه يحتل هذه المكانة في قلب أميرته، ولكنها سرعان ما انتشلته بصوتها القلق من مشاعره تلك:

- هيا أبي لقد تأخرنا، علينا أن نجري بعض الفحوصات لقلبك الجميل هذا، وعلينا الإسراع حتى لا يفوتنا الموعد ونتعرض للتقريع من الطبيب كالمرة السابقة.

أومأ برأسه وقام مع ابنته واتجها إلى الخارج حيث كان قصي ينتظرهما هناك بسيارته الأودي.

احـــتـــيـــاج

لم يكن قصي بالشاب الوسيم الذي يجعل أي فتاة تنظر إليه تعشقه ولكن شهامته جعلت ياسمين تختاره هو دون كل الرجال الذين كانوا يتمنون إشارة واحدة من يدها.

كان أبيض البشرة أشقر الشعر قد يبدو للوهلة الأولى أنه ذو ملامح أوروبية ولكن أنفه المفلطح قليلا وشفتاه الغليظتان يجعلانك تغير رأيك بعد أن تتأمله، نظر قصي إليها بإعجاب بالغ، لم يكن يصدق كيف أن فتاة بهذا الجمال اختارته هو دون غيره.

وصل الثلاثة إلى باب المستشفى فاصطحبت والدها إلى الداخل بينما فضل هو الانتظار في الخارج ليعطيهما بعض الخصوصية، أدخلت والدها إلى قاعة الفحص بينما بقيت هي تنتظر في الخارج تذرع الصالة ذهابا وإيابا، بعد فترة خرج والدها ليدعوها الطبيب إلى مكتبه، جلست في توتر واضح وقبل أن تفتح شفتيها لتتكلم بادرها الدكتور أحمد قائلا:

- حالة أبيك لم تعد مطمئنة أبدا آنسة ياسمين؛ قلبه بدأ يخسر بعض وظائفه وكل يوم يمر يزيد من حالته سوءا.
- ولكن مالعمل دكتور؟ أنت قلت إنه لا يتوفر متبرع، والعثور على قلب في المستشفيات الأخرى صعب ...
- لقد بدأت بالفعل بمراسلة عدة مستشفيات وأنا أنتظر الرد، وليس علينا سوى الانتظار، قال هذا وهو يمدها بورقة، صعقت عندما قرأت ماهو مكتوب فيها، كان قد خط على الورقة العدد مليون مع رمز الدولار بجانبه، مليون دولار**!؟**

نظرت إليه مستفسرة لأنها تعلم أن العملية لا يمكن أن تتطلب كل هذا المبلغ**!**

احـــتـــيـــاج

أخبرها بأنها ستكون محظوظة لو استطاعت أن توفر المبلغ لأنه يوجد في ذلك المستشفى الذي يعالج فيه والدها حالة موت دماغي، وأن والدة المريض اشترطت هذا المبلغ لتوقع على وثائق تفيد بمنحها هذا العضو من جسد ابنها.

نظرت إليه مصدومة، فأجابها وهو يقرأ كل ما تقوله عيناها من كلام:

- نعم يوجد هذا النوع من الناس، يوجد أناس يستطيعون أن يتاجروا بأبنائهم من أجل الأموال والأدهى من ذلك يستطيعون أن يستغلوا حاجة الناس من أجل تحقيق مصالحهم، ولكن لا تقلقي لن يعلم أحد بهذه الصفقة، العم محمود له أفضال كثيرة علي وسأفعل المستحيل لأساعده.

خبأت الورقة جيدا داخل حقيبتها بعد أن تأكدت من أن الطبيب لم يقل شيئا لوالدها وخرجت من المكتب فلاقاها عند الباب وسألها في شك:

- ماذا قال الطبيب يا ابنتي؟
- نفس الكلام الذي يرددونه دائما ، دعنا منه الآن أنا قررت أن أعزمك على الغداء اليوم.
- **حقا؟!**

ابتسمت بطفولة وهي تمسك بيده قائلة :

- **طبعا!**

التقى بهما قصي عند الباب بعيون قلقة فطمأنته بكلمات مقتضبة ولكنه نظر إليها نظرة شك يقول فيها:

- أعلم بأن لديك كلاما كثيرا، ولكن ليس الآن.

احـــتـــيـــاج

في المساء بعد أن ساعدت والدها ليأوي إلى فراشه وحدثته قليلا عن عملها دون أن تنسى أن تحدثه عن السيدة هدى وبداية قصتها المؤثرة، ذهبت هي الأخرى إلى غرفتها الملاصقة لغرفته وتركت الباب مفتوحا لتشعر بأي حركة تأتيها من عنده.

جلست على حافة السرير وهي تفكر في ما قاله الطبيب وفي تلك الورقة التي ترقد في أعماق حقيبتها؛ مليون دولار؟! من أين ستأتي بهذا المبلغ الضخم؟.

رن جرس هاتفها معلنا وصول رسالة من قصي:

- أنا أمام المنزل، اخرجي لنتحدث قليلا.

ابتسمت مرغمة لهذا التصرف الطائش الذي لم يتعود قصي الرجل الرصين على إتيانه ثم ارتدت ملابس تليق بالخروج وخرجت لملاقاته.

استقبلها بنظرات حائرة وبادرها بقوله:

- أعلم بأن هناك كلاما كثير تريدين أن ...

أسكتته بحركة من يدها وطلبت منه أن يصطحبها إلى الحديقة التي التقيا فيها أول مرة وهي تتذكر قول مدام هدى "للحيطان آذان" .

وصلا إلى الحديقة التي لم تتأملها لأول مرة منذ بدأت بارتيادها، لطالما سحرتها أشجار الصنوبر والزان التي كانت تحيط بها ورائحة الورود المختلفة التي تزين كل مكان فيها تقريبا، ولأول مرة أيضا لا تشعر بالانتعاش ما إن تستنشق هواءها النقي، جلسا على أول كرسي صادفهما،

احـــتـــيـــاج

شبكت يديها أمامها في توتر واضح وسحبت نفسا عميقا، قاطعها صوته القلق مستفسرا:

- هل كل شيء على ما يرام؟
- أبي يا قصي.

قالتها ثم انفجرت باكية، حاول مسح دموعها ولكنها سبقته إلى ذلك وأكملت:

- الدكتور قال إنه لم يبق أمامه أكثر من أسبوع، ولا يوجد متبرعون و...

سكتت عن الكلام واكتفت بدموع صامتة، استحثها على مواصلة الكلام فواصلت:

- يقول الطبيب أنه يوجد متبرع واحد، ولكن أمه تطلب ...
- تطلب ماذا؟
- مليون دولار، هل تصدق؟ مليون دولار ثمنا لقلب إن لم يجد من يشتريه سيدس تحت التراب.

توقفت عن الكلام وأخذت تنشج وتهتز في عنف، حاول الاقتراب منها ولكنها انكمشت على نفسها أكثر وأخذت تنشج بشكل أعنف.

أخذ يربت على ظهرها قائلا:

- لطالما عهدتك قوية وصلبة ياسمين، إن انهرت أنت فماذا سيحدث لوالدك المسكين؟، هو لا يملك غيرك، هو يشحذ قوته منك أنت، أحب أن تكوني صلبة وقوية كما عرفتك دائما، سألتني يوما لماذا أحببتك ولم أجبك حينها، سأخبرك الآن:

احـــتـــيـــاج

لم يلفتني جمالك بقدر ما لفتتني صلابتك وقوتك، في أول لقاء لنا معا، عندما جاءت تلك المرأة لتتشاجر معي لأني لم أستلم قضية ابنها بسبب المال، مازلت أتذكر جيدا ردة فعلك عندما نهرتها، كلامك الذي مايزال يتردد في ذهني وأنت تعطينني درسا عن أخلاقيات المهنة، عن مساعدة العاجز ونصرة المظلوم، مازلت أذكر جرأتك وفصاحتك والقوة التي رأيتها في عينيك، ذلك ما جذبني نحوك وتلك النظرة الجبارة هي ما جعلني أحبك وأتغير من أجل عيونك، كوني دائما قوية وجبارة كما عهدتك دائما.

رفعت عينين دامعتين نحوه وقالت:

- إنه والدي يا قصي، حياتي وسندي وكل ما أملك في الحياة.
- وأنت أيضا سنده وكل ما يملك في حياته، أنت قوته فلا تستسلمي أبدا وأنا معك، معك إلى الأخير ولن أتركك أبدا، سأحاول مساعدتك في أمر المبلغ وسأكون دائما بجانبك أسندك إن وقعت.

نظرت إليه في امتنان فبادلها نظرة حانية ثم قامت معه إلى السيارة فأوصلها ثم عاد إلى منزله.

أوت إلى فراشها بعد أن اطمأنت على والدها ولكنها لم تستطع النوم، كانت الأفكار تتناهشها دون رحمة فظلت تتقلب في فراشها وتقلب الأمور في رأسها لساعات إلى أن رحمها النوم.

في الصباح اتجهت إلى عيادتها وبالها مازال مشغولا بأمر المبلغ، فكرت وفكرت ولكن عقلها لم يتمخض عنه إلا الفراغ.

احـــتـــيـــاج

عند الساعة الحادية عشر صباحا جاء دور مدام هدى، دخلت إلى العيادة مكتفية بسلام خافت من بين شفتيها ثم اتجهت مباشرة إلى السرير واستلقت لتبدأ بالسرد دون أن تنتظر إشارة من ياسمين:

- عدت إلى المنزل خائفة أدوس على قلبي كي أستطيع الاستمرار ولا أولي هاربة، كنت أرجو الله أن لا يكتشف أبي كذبتي التي أمضيت طول الطريق وأنا أحيكها والتي بدأت بإلقائها ما إن سألني أبي وهو مذعور عن سبب عودتي إلى المنزل:

فكرت قليلا واتخذت قراري، أنا لن أذهب إلى أي مكان وسأتزوج من مروان، قلت اسمه وأنا أحاول قدر المستطاع كتم قرفي من مجرد ذكر اسمه، شعرت بالصدمة وهي تعلو وجهه فأكملت:

فكرت كثيرا، نعم أنا أريد أن أكمل دراستي ولكن المال أهم بكثير، مروان يملك الكثير منه وسأشتري كل ما حرمت منه، سأحقق كل أحلامي التي عجزت أن تحققها لي، قلت له هذا وأكثر؛ تكلمت كثيرا وآذيت والدي أكثر، لم أكن أريد أن أترك له مجالا ليعاتبني؛ وإلا كنت سأنهار وأخبره بكل شيء فأنا منذ وفاة أمي لم أعتد إخفاء أي سر عنه.

لم أشعر إلا بصفعته على خدي، صفعة استحقيتها وتنميتها علها تغسل عني بعض إثمي في كذبي عليه وكل هذا الكلام المجحف الذي قلته في حقه، لم أدعه يقول شيئا بل ركضت إلى غرفتي وأغلقت الباب على نفسي وتمنيت أن ينتهي كل هذا بطريقة ما، ولكنه لم ينته.

لحق بي وترجاني كثيرا أن أفتح الباب، اعتذر كثيرا وقال إنه تمنى لو قطعت يده قبل أن يصفعني، طلب مني بل ترجاني أن أرحل أن أنقذ

احـــتـــيـــاج

مستقبلي، كنت أبكي في صمت؛ أبكي نفسي وأبي وأحمد الذي قتل أمام عيني بسبب عنادي وتهوري وأتمنى من كل قلبي أن أرتاح حتى أني تمنيت أن يأتي مروان ليرحمني من سماع نحيب أبي.

وبالفعل جاء مروان وعندما شعرت بأنه تحرك من مكانه قمت وفتحت الباب وخرجت لألتحق بهم ، كان أبي يرجو الإمام ويخبره أن مروان يريد أن يغصبني على الزواج، وعندما سألني الإمام أنكرت الأمر وحاولت أن أبدو سعيدة، واحتججت بأن أبي متعلق بي ولا يريدني أن أغادره، أخذته معي إلى ركن الغرفة وتحاشيت النظر إلى عينيه وقلت له:

- إن كنت حقا تريد سعادتي وافق على هذا الزواج.

قال في حشرجة:

- ولكن أنت لا تعرفين شيئا، مازلت صغيرة ولا تعرفين أي رجل هو مروان.
- ولكني أريد الزواج منه لأنه هو فقط من يستطيع أن يحقق لي كل أحلامي، أحلامي كبيرة؛ أكبر من أن تحققها لي أنت أو أحققها أنا، أحلامي أنا لا تتحقق إلا مع رجل مثل مروان، وأنا كرهت الفقر يا أبي ولا أريده وإن كنت تحبني حقا ستحقق لي هذا الحلم.

كان مصدوما، حاول الكلام ولكني انسحبت واتجهت ناحية مروان الذي نظر إلي نظرة لم أحاول فهم معناها، بعد لحظات لحق بنا وقد رضخ لطلبي ووافق على هذا الزواج.

احـــتـــيـــاج

وتم الزواج وأنا أحس بنظراته تحرقني، تمنيت أن أعتذر منه، أن أقبل قدميه، أن أخبره بأني مجبرة عليه، وأني فعلت كل هذا لحمايته هو لا غير، ولكني لم أقدر.

سرت أمام مروان تاركة إياه يذرف دموع الحسرة على أمانة أمي التي لم يستطع أن يحميها ويحافظ عليها، وخرجت من بيته مكرهة وأنا أتمنى لو كنت ترابا ولا أعيش هذا العذاب.

لن أتكلم عن دخلتي معه ولا ليالي التي كنت أرجو الله أن يأخذني قبل أن تحل، أغرقني مروان بالأموال، اشترى جسدي ولكنه لم يستطع أن يشتري قلبي أبدا، كنت في كل يوم أعيشه معه أخسر جزءا من روحي، من قلبي، من إنسانيتي، وكان كل يوم يمر يتحول معه قلبي شيئا فشيئا إلى قطعة من حجر.

بعد مرور سنتين مات أبي وفي نفس اليوم اكتشفت بأني حامل، كرهت مروان أكثر لأنه بسببه لم أكن مع أبي في أيامه الأخيرة وكرهت معه ابنه الذي كان ينمو في أحشائي كشيء دخيل، كمرض خبيث حاولت أكثر من مرة أن أستأصله، لاأنكر فقد صبرعلى كل تقلباتي ولكن هذا الصبر لم يشفع له عندي بل جعلني أكرهه أكثر، أنجبت ابنه الأول وكان يشبهه لدرجة جعلتني أنفر منه.

كبر وائل -هكذا سماه والده- بين الخدم والمربيات ولا أذكر أني حملته يوما ولا لاعبته.

احـــتـــيـــاج

عندما تخطى السنة من عمره أصبح يحاول التقرب مني ولكن دون جدوى، كنت أنفضه عني وكأنه عدوى خطيرة أخشى التقاطها، كان كلما كبر أكثر حاول الالتصاق بي أكثر وكان كلما حاول الالتصاق بي أكثر نبذته أكثر.

نظراته ابتسامته كل شيء فيه كان يذكرني بوالده، كل كلمة منه كانت تجعلني أنفر منه، حتى كلمة ماما كرهتها منه، كنت أشعر بأني استهلكت لدرجة أني لم أعد قادرة على العطاء، ركزت كل تفكيري على صرف الأموال على اللباس والتسوق وأي شيء يجعلني أنسى.

وفي المقابل كان وائل يكبر بعيدا عني وعندما أصبح في عمر الخامسة عشر حملت مرة أخرى، وعلى عكس المرة الأولى تقبلت هذا الحمل، بل وكنت أنتظر بفارغ الصبر موعد الوضع.

لم يكن يشبه مروان في شيء بل كان نسخة عني، أسميته عمر لأني أردته أن يعوضني عن عمري الذي ضاع مني.

كان متعلقا بأخيه منذ شهوره الأولى وكنت أكره هذا التعلق وأمقته وأزجر وائل وأمنعه من الاقتراب منه، لم يكن يعصي أوامري ولم يكن يخالفني في أمر، بل كنت أشعر بسعادته عندما أحدثه حتى وإن كان نهيا أو توبيخا.

قررت ياسمين أن هذا يكفي لليوم، نظرت إلى السيدة هدى التي لم تكن تذرف الدموع بل كانت عيناها تحملان نظرة زجاجية غريبة.

وافقتها السيدة هدى بإشارة من رأسها، وقامت من مكانها قائلة:

- غدا في نفس الوقت.

احـــتـــيـــاج

في المساء أغلقت العيادة وعادت إلى البيت تجر الخطى، تفكر وتفكر ولكن دون جدوى، اتصلت بصاحب محل المجوهرات وعرضت ما تملكه من حلي للبيع، حتى العيادة عرضتها للبيع ولكن كل هذا لم يكن يفي بالغرض، كانت تنتظر معجزة ما تخرجها من هذه الورطة، تماما كما كانت مدام هدى تنتظر معجزة تخلصها من مروان، ولكن هل تتحقق المعجزات؟!

في الليل قصت على والدها ما جرى مع مدام هدى، ثم بعد أن خلد هو إلى النوم، اتجهت إلى غرفتها وجلست تفكر، ثم أمسكت بهاتفها لتتصل بقصي عله يساعدها على إيجاد حل.

احـــتـــيـــاج

في الغد دخلت هدى كعادتها وألقت تحية صامتة بإيماءة من رأسها، ثم استلقت وأكملت:

- عندما انتقل وائل إلى الدراسة في الجامعة تعرف على شاب اسمه إياد واتخذه صديقا، لم أرتح يوما لهذا الصديق ولكني لم أكن أهتم، كان نفوري من وائل يزداد مع تقدمه في السن، كان كلما كبر سنة ازداد شبهه بوالده، لم يكن مروان بشعا بل كان وسيما رغم تقدمه في السن، ولكني كنت أكره ملامحه وأكره أي ملامح تشبهها.

مع مرور الأيام أصبح وائل يصطحب صديقه معه إلى البيت للمبيت معه ولكني رفضت هذا رفضا قاطعا فاكتفى بأن أصبح ينام معه في الملحق الخاص بالمنزل، لا أنكر أن وائل كان فتى مجتهدا وذكيا جدا وكان مع كل هذا مهذبا وخلوقا، لم يكن يقرب المخدرات ولا المشروب ولم تكن له علاقات مع الفتيات، كان لا يعرف له طريق إلا البيت والجامعة، وكان ملازما لذلك المدعو إياد الذي كان يدعي أنه يتيم لا مأوى له.

ذات يوم بينما كنت نائمة في غرفتي بعد أن أرسلت عمر إلى النوم في غرفته -بعد أن ألح علي كثيرا لينام معي على غير عادته-، ايقظني دوي صرخة وائل، ذلك الصوت الذي لطالما أزعجني ونفرت منه دون سبب يرن الآن في أذني مؤذنا إياي بخطر جسيم، قمت من فراشي في ذعر، ارتديت شيئا ما وجدته أمام السرير على عجل وخرجت وأنا أتمتم مذعورة:

-اللهم لا تختبرني في عمر، اللهم ليس عمر.

عندما وصلت إلى البهو رأيت ما لم أتمن أن أراه يوما، رأيت أشد كوابيسي رعبا، رأيت حياتي وهي تنهار وعمري وهو يتسرب مني.

احـــتـــيـــاج

كان عمر ممددا على الأرض ووائل راكعا إلى جواره والدموع تغرق عينيه وهو يهز أخاه دون توقف، رأيت بركة من الدماء تحيط بهما، نظرت إلى وائل وفي لحظة تمنيت لو أن الدماء كانت دماءه، لا أدري كيف دفعته جانبا واحتضنت عمر، كان باردا كقطعة جليد، تأملت عينيه الزمرديتين الجميلتين اللتين كانتا مفتوحتين عن آخرهما ونظرة رعب تند منهما، صرخت وصرخت حتى توقف صوتي عن الخروج، ناديته، ترجيته وأخبرته بأني موافقة على أن ينام في غرفتي، أخبرته أنه لن يبتعد عن حضني مجددا، مهما كبر ومهما بلغ من العمر.

التفتّ إلى وائل، كان منزويا في ركن الغرفة مصدوما، صرخت في وجهه، صفعته، لعنته، اتهمته بقتل أخيه، بينما كان يردد دون توقف بين شفتيه المرتعشتين:

- إ..إي... إي..... إيادد قتله.

صرخت أكثر وضربته أكثر، قلت له وأنا أنظر في عينيه:

- لماذا لم يقتلك أنت؟، لماذا لست أنت؟!...

لم ينطق ولم يقل شيئا، بقي جامدا في مكانه، بينما قلت أنا له كل ما كنت أريد أن أقوله لمروان.

دخل والده ووجدنا على تلك الحال، كنت أضربه وكأني أخرج حقدي على أبيه كل تلك السنوات، وكان هو مستسلما وديعا شاخصا ببصره إلى اللاشيء، أخذه من بين يدي ثم عاد وجثى أمام جثة عمر على الأرض وبكى كثيرا، كانت تلك أول مرة أراه ضعيفا وكسيرا إلى ذلك الحد.

احـــتـــيـــاج

مرت الأيام وبقدرة ما تحملت كل تلك الضغوط ولكن مروان لم يتحمل، شيعته كما لو أنني لم أعرفه يوما، كما لو أنه شخص لا أعرفه أبدا وعدت إلى الحياة راغمة، كان وائل يتحاشاني وكنت أتحاشاه بدوري، لقد قلت كل شيء في تلك الليلة ولم يتبق لدي شيء، لم أعد قادرة على الكلام ولا حتى مواجهة أحد.

ولكني رغم هذا لاحظت أنه أنحف وأشد شحوبا من ذي قبل، انتبهت إلى عينيه الشاخصتين وغيابه شبه التام عن الدنيا، كان يذبل مع كل شروق وغروب وأصبح ينقطع عن البيت شيئا فشيئا حتى غاب نهائيا.

استغربت بشدة عندما شعرت بكرهي له يتلاشى وبمشاعر النفور تولي، لا أدري هل السبب هو وفاة مروان وتخلصي من كابوسه، أم فقدي لعمر، ولكني اكتشفت أني أريده، أشتاقه، والأدهى منه أني أحبه.

كانت ياسمين تسجل على دفترها بعض الملاحظات والدموع تنهمر من عينيها ليس من أجل والدها هذه المرة؛ ولكن طفولة هذا الفتى ذكرتها بطفولتها؛ رغم أن طفولته كانت أشد وعندما أرادت أن تضع حدا لجلسة اليوم أوقفتها مدام هدى بإشارة من يدها وواصلت:

- بحثت عنه كثيرا، ولكني لم أجد سوى جسده لأن روحه كانت تسبح في عوالم أخرى لا أعرفها.

كان مجرد خيال في عينيه نظرة لم أفهمها، كان شاخصا ذاهلا ضائعا، أشد نحولا وأكثر اسمرارا، استبدل ملابسه الأنيقة ببنطال من الجينز الممزق وقميص أبيض ملطخ وسترة جلد قديمة، احتضنته فأجفل مني وولى مبتعدا،

احـــتـــيـــاج

أخفض عينيه كعادته عندما يواجهني وقال بصوت شعرت به يأتي من غياهب جب بعيد:

- مدام هدى!؟

تراجعت إلى الخلف هامسة :

- مدام هدى!؟

تفاجأت لأن وائل لم يسمني بهذا الاسم من قبل، في بداية طفولته كان يناديني ماما كثيرا، وكلما زجرته عن هذا عاند ونطق بها أكثر، وعندما يئست من معاندته أهملته فماتت هذه الكلمة على لسانه ولم أسمعها منه مرة أخرى، لم يسمني وائل من يومها، فقط كان يوجه إلي الكلام مباشرة، وعندما واصلت تجاهلي له توقف عن الكلام معي أيضا وكان يكتفي بهزة من رأسه عندما أزجره أو أوبخه، ولم يحدث أن رفع عينيه ليواجهني مطلقا.

ابتسم ابتسامة ميتة وقال:

- لماذا أتيت إلى هذا المكان؟

لأول مرة أرفع عيني لأرى المكان، كان مقفرا خاليا إلا من بضعة سكيرين، خفضت عيني لأسفل فرأيت بساطا مفروشا على الأرض تحيطه عدة محاقن ولفافات مختلفة بعضها احترقت كلها وبعضها احترق نصفها، وقنينات خمر فارغة.

احـــتـــيـــاج

شهقت واضعة يدي على فمي فنظر إلي نظرة فارغة وطلب مني مغادرة المكان ونسيان أمره وأني التقيته يوما، قال في لهجة شبه ميتة:

- اذهبي ولا تعودي إلى هذا المكان مرة أخرى!، مدام هدى هذا المكان خطير جدا ولا يجب أن تتواجدي فيه!.

سحبني من يدي واتجه بي إلى سيارتي، حاولت أن أكلمه ولكنه أفلت يدي واتجه نحو دراجة نارية ركبها وسار بعيدا، ناديته بكل ما أوتيت من قوة، ناديته حتى ظننت أن السماوات انفطرن لصيحتي، ثم أحسست بوعيي ينسحب مني لأغيب عن الدنيا وما فيها.

حاولت ياسمين الكلام ولكن هدى أشارت لها بالصمت مرة أخرى وواصلت:

- استيقظت في المستشفى بعد مدة لا أعلم مداها، كنت أشعر بيد تمسك بيدي، يد ضعيفة وباردة، فتحت عيني ببطء فرأيته؛ كان هناك بشحوبه ونحوله ونظرته الشاخصة إلى اللاشيء.

انتفضت محاولة الوقوف ولكنه ثبتني بقبضته التي كانت قويه جدا مقارنة بجسده الهزيل.

حاولت أن أمد يدي لأمسد بها على ملامحه المتعبة ولكنه أشاح بوجهه بعيدا، وقال وهو يتجنب النظر في وجهي:

- مدام هدى، لا تلحقي بي، نعم أدركت خطئي وها أنذا أدفع ثمنه، لن أستطيع أن أعيد إليك عمر ولكني سأدفع عمري لترتاحي، لا تبحثي عني مرة أخرى واطمئني فأنا أعيش جحيما ألعن من جحيم الآخرة ثم قام من مكانه وانصرف.

احـــتـــيـــاج

سحبت هدى الهواء بعمق ثم رفعت رأسها وجلست مقابل ياسمين، أمسكتها من يدها بطريقة أفزعتها وقالت:

- لا أريد أن أسمع شيئا، احتفظي بنظرياتك وتحليلاتك لنفسك...

ثم شدتها إليها بعنف وهتفت:

- أريد ابني، أريد وائل...

سحبت يدها من يد هدى وانتفضت واقفة ثم قالت:

- يبدو أنك قد جننت حقا، إن كنت لا تريدين العلاج فتفضلي خارجا، ليس لدي وقت أنفقه على أمثالك.

ابتسمت هدى ابتسامة جعلتها تسحب كل التعاطف الذي أبدته ناحيتها سابقا وقالت:

- تريدين أن تعرفي لماذا أنا هنا؟ طبعا لست هنا من أجل الاستماع لتفاهاتك الفارغة، ولكني هنا لأمر آخر تماما.

سحبتها من يدها إلى الخارج مكتفية من كل هذا الهراء الذي سمعته، ولكنها أوقفتها بجملة واحدة:

- والدك، أنا أستطيع إنقاذه.

تسمرت في مكانها وسألت بنبرة متحشرجة:

- ولكن ...كيف عرفت بأمر والدي؟.

احـــتـــيـــاج

قالت هدى بصوت أقرب إلى الفحيح:

- أنا أعرف كل شيء عنك يا حلوة، أنا أعرف كل ماضيك وأنا من ستحدد مستقبلك أيضا.

نظرت إليها غير مصدقة كل هذا الكم من العجرفة!! هل يعقل أن تكون هي نفسها تلك المرأة التي كانت تبكي فوق السرير منذ لحظات، واصلت هدى مستغلة هذا الصمت الذي تغرق فيه:

- خدمة بخدمة، ستنقذين ابني وأنا في المقابل سأنقذ والدك.
- هل جننت؟ كيف سأنقذ ابنك، ما هذا الهراء الذي تتفوهين به؟
- ألست طبيبة نفسية؟! إذا لا بد أنك تعلمين، ثم كل هذا الجمال الذي تمتلكينه سيجعله يجثو عند قدميك عاجلا أم آجلا، وأنا في المقابل سأعطيك المبلغ الذي تحتاجينه، وسأغطي تكاليف العملية أيضا.

ثم أردفت وهي خارجة:

- بطاقتي تركتها لك على مكتبك، ولا أظن أن قلب والدك سيمنحك الوقت الكثير للتفكير.

ثم خرجت من المكتب تاركة إياها غارقة في صدمتها وحيرتها.

رن هاتف هدى وهي تهم بركوب سيارتها "الجاكوار" فابتسمت عندما رأت اسم "عبد الهادي" على شاشة الهاتف وردت قائلة:

- هل عثرت عليه؟، حسنا إذا سأحضر الأوراق وأوافيك.

أغلقت الهاتف ثم طبعت عدة أرقام عليه، بعد ثوان قالت:

- ألو دكتور حسان هل أصبحت الأوراق جاهزة؟

احـــتـــيـــاج

- ....
- حسنا أنا قادمة لاستلامها.
- .....
- شكرا على خدمتك الجليلة، واطمئن على رحلتك إلى جزر البهاماس، لقد تم الحجز.

ثم أغلقت الهاتف وركبت السيارة.

احـــتـــيـــاج

كان يدخن سيجارة ونظرة غريبة ترتسم على وجهه، نظرة فارغة من دون معنى، من يراه في تلك الحال يظن أنه مجرد رجل آلي خال من أي أثر للحياة.

توقفت سيارة " جاكوار" سوداء على مقربة منه، نظر إليها نظرة مبهمة وواصل تدخينه لسيجارته، نزلت هدى من السيارة واتجهت نحوه، جثت على ركبتيها أمامه وخفض هو عينيه كي لا يواجهها.

مدت يدها إليه وأخذت السيجارة من يده ورمتها بعيدا، لم يبد أية ردة فعل، بل اكتفى بنظرة خاطفة رماها بها، ثم عاد ليخفض بصره مرة أخرى، بدأت بالكلام قائلة:

- وائل... أعرف أنك لا تريدني أن أبحث عنك، ولكن لدي كلام أريد أن أقوله لك ولك الحرية في أن ترفضه أو تقبله.

أعلم بأني مهما قلت فلن تصدقني، ولكني رغم هذا سأقول:

أنا الآن أشعر بالندم على كل تلك اللحظات التي حرمتك فيها من حضني، وكل تلك الليالي التي احتجتني فيها ولم تجدني، كل تلك اللحظات التي ناديتني فيها فتجاهلتك، ولكن ربما ستعذرني إذ تعرف قصتي، لا أقول ستسامحني لأن هذا صعب، ولكن ربما ستجد لي ولو عذرا بسيطا وإن كان واهيا.

احـــتـــــيـــاج

نظرت إلى ملامحه لعلها تجد أي أثر لردة فعل توحي بتأثير كلامها عليه ولكنها لم تجد إلا الفراغ والخواء، فواصلت قائلة:

- أنا أيضا كنت ضحية يا وائل، ضحية والدك الذي اغتصب طفولتي وحرمني من والدي وجعلني حبيسة سجنه طول حياتي، والدك الذي قتل الرجل الذي أحبه دون رفة جفن حتى، حملت بك وأنا لا أزال طفلة لا أعلم مالأمومة ولا أدري كيف أتصرف، نعم لا أنكر استمر هذا الأمر حتى بعد أن كبرت ولكني أقر الآن أني كنت ساذجة وجاهلة، أنا الآن لا أريد منك شيئا إلا أن تكون بقربي في آخر أيامي في هذه الحياة .

لأول مرة منذ بدأت بالكلام شعرت بيده التي كانت تعبث بشيء ما تتصلب، اطمأنت لهذا التغيير البسيط وواصلت:

- اكتشفت اليوم أني مريضة بالسرطان، لا أدري كم سيمنحني هذا الورم الخبيث لأعيشه، مهما كان ما سيمنحني إياه أريدك فيه إلى جانبي، أتوسل إليك يا بني لا تحرم أمك منك في آخر أيامها.

ألقت برزمة من التحاليل والأوراق أمامه ثم حاولت أن تلتقط يده بين يديها ولكنه سحبها بسرعة وقام مبتعدا.

قامت من مكانها ولحقت به وهي تقول:

- سأنتظرك.. حتى آخر يوم في عمري سأنتظرك.

احـــتـــيـــاج

فكرت ياسمين مليا في كلام هدى، كان مايزال أمامها خمسة أيام إن أسعفها قلب والدها.

حملت بطاقتها بين يديها وتأملتها وهمت أكثر من مرة أن تتصل بها لتستوضح أكثر، ولكنها كانت تمنع نفسها في آخر لحظة.

أي جنون ذاك الذي ستستوضح عنه، كيف ستعيد إليها ابنها؟!، بل كيف سيسامحها بعد كل ما فعلته!؟

يبدو أن هذه المرأة قد جنت حقا ولم يعد أمامها إلا أن تدعو الله أن لا يتركها لرحمة هذه المرأة القاسية.

احـــتـــيـــاج

مرت الأيام التالية رتيبة وكئيبة لا تطاق، كانت ياسمين تسابق الزمان لعلها تستطيع حل هذه المشكلة التي وقعت فيها .

عرضت كل شيء للبيع؛ حليها، عيادتها وحتى المنزل، ولكن لا شيء كان يجدي، حتى القرض لم تستطع الحصول عليه، لا الوقت ولا المبلغ أسعفاها على ذلك، قصي أيضا حاول وحاول ولكن دون جدوى.

كانت تمضي نهارها مثل نحلة، تبحث وتبحث دون ملل أو كلل، أما لياليها فكانت تنكفئ فيها على نفسها وتبكي، حتى قصي لم تكن تطيق محادثته، لم تعد تقوى على شيء.

كانت كثيرا ما تسحب تلك البطاقة لتتأملها في يأس، وكلمات هدى ترن في رأسها دون توقف:

سأعيد لك والدك بشرط أن تعيدي لي ولدي .

فكرت كثيرا في ذلك الجنون! كيف ستعيد لها ولدها؟

هدى لم تقل كيف؟ بل لم تقل شيئا! أما هي فلم تكن تملك الطاقة ولا القوة والجرأة لتستفهم، هل تقصد أنها تريد أن تعالج ولدها؟ أم ماذا تريد بالضبط!، في هذه الأثناء وبينما كانت تفكر في أمر تلك المرأة في يأس سمعت صرخة من غرفة والدها قامت على إثرها مفزوعة.

كان مسجى على أرض الغرفة وهو يمسك مكان قلبه بيده، ويتنفس بقوة وكأنه يحاول سحب الهواء فلا يجده!!

احـــتـــيـــاج

جثت على ركبتيها أمامه وانحنت تمسح بيدها على وجهه وتحدثه بصوت يملؤه الرعب :

- أبي هل انت بخير؟!

لم يجبها بل اكتفى بهمهمات خفيضة مختلطة ببعض الآهات المكتومة.

- أبي أرجوك اصمد سأتصل بالاسعاف حالا...

ركضت إلى غرفتها وأمسكت بهاتفها، طبعت عليه رقم الإسعاف واتصلت وهي تركض عائدة إلى غرفة والدها، جثت على ركبتيها أمامه مرة أخرى وأمسكت بكلتا يديه بين يديها وهي تهمس بصوت مخنوق:

- أنا معك لا تخف.. أرجوك لا تتركني أنت أيضا كما تركتني أمي من قبل.

شعرت برد فعل ضعيف من يديه أتبعها بأنة ضعيفة ليشعرها أنه معها.

وصلت سيارة الإسعاف بعد مدة قصيرة لحسن حظها، حمل إلى السيارة بهدوء وجلست قرب سريره وهي تحاول قدر ما أمكنها ابقاءه مستيقظا.

حمل إلى غرفة الاستعجالات وهناك وجدت الدكتور أحمد في انتظارهم وبعد عدة فحوصات وعمليات مساج للقلب عاد إلى وعيه، وكان تحذير أحمد هذه المرة واضحا وصارما:

- آنسة ياسمين العملية يجب أن تجرى بعد غد، ولديك مهلة من الآن إلى الغد مساء لتحديد هل تستطيعين أن توفري المبلغ أم ...

احـــتـــــيـــاج

همست بصوت متحشرج:

- أم ماذا حضرة الدكتور؟.
- أم أنك ستخسرين والدك للأبد.

قالها الدكتور أحمد بعملية وببردود من تعود على مثل هذه المواقف، وعاد إلى السرير الذي يتمدد فيه والدها بلا حول ولا قوة .

اقتربت من والدها وقبلته على جبينه وطلبت منه أن يرتاح، وأخبرته بأنها ستذهب إلى البيت بسرعة لتحضر له بعض الثياب، وأنها اتصلت بقصي وسيبقى في رفقته إلى أن تعود .

وصلت إلى المنزل خائرة القوى، حملت بعض الثياب وأمور أخرى يحتاج إليها والدها وعرجت إلى غرفتها لتحمل حقيبتها، ثم نظرت إلى البطاقة الموضوعة على المكتب أمامها والتقطتها واضعة إياها داخل الحقيبة.

أوقفت سيارة أجرة قرب المنزل وركبت مسندة رأسها إلى النافذة، أغمضت عينيها بشدة محاولة التفكير لعلها تجد حلا للوضع الذي بات يوما بعد يوم يسير نحو الأسوأ.

أخرجت البطاقة من حقيبتها وتأملتها ثم أخرجت الهاتف وطبعت الرقم الموجود فيها على هاتفها، بعد بضع رنات جاءها صوت هدى باردا كقطعة ثلج من الجهة الأخرى:

- ألو نعم من معي؟
- مرحبا مدام هدى أنا ياسمين.. الطبيبة النفسية التي...

احـــتـــيـــاج

قاطعتها وشبح ابتسامة منتصرة على وجهها :

- همم نعم تذكرتك! بماذا سأخدمك؟

شعرت ياسمين بأنها تستقصد استفزازها ولكنها حافظت على هدوئها وواصلت:

- بشأن الموضوع الذي حدثتني عنه أول مرة، هل مازلت تحافظين على عرضك؟
- أي عرض!؟

أجابت بتبرم:

- بشأن مساعدتك لوالدي؟!.
- امم بالطبع، ولكن هل مازلت تتذكرين شرطي؟

أجابت في حيرة ممزوجة بخوف:

- ولكني لم أفهم شرطك جيدا .
- تعالي غدا صباحا إلى العنوان المدون على البطاقة وسنتفاهم على كل شيء.
- حسنا مدام هدى تصبحين على خير.

ولكن السيدة هدى لم ترد بل اكتفت بإغلاق الهاتف.

احـــتـــيـــاج

عاد إلى وكره متعبا بعد يوم طويل قضاه في التجول دون وجهة على دراجته النارية، جلس على الفراش البالي أمامه وتناول حقنة حقنها في ذراعه على عجل، أغمض عينيه بشدة محاولا طرد شبح صورة ارتسمت أمام عينيه للحظات ثم اختفت ليفتح عينيه ويحدق في الفراغ.

مر بباله حديث أمه، كلامها عن مرضها وكل تلك الفحوصات التي ألقتها بين يديه والتي تأكد من صحتها وفهم منها -من نظرة خاطفة فقط- أن أمه لديها سرطان دماغ في مراحل متأخرة، وقد عرف كل هذا بحكم دراسته للطب سابقا.

تنهد بعمق، كانت مشاعره مشوشة تماما، مثل أفكاره وماضيه ومستقبله، بل وكل شيء يتعلق بحياته.

كم من الوقت مر منذ أن فكر بذهن صاف آخر مرة؟ إنه لا يذكر ذلك حتى، اختلطت عليه الأمور حتى بات لا يدرك شيئا، كان يريد أن ينسى من هو وماذا يريد وحتى كيف يفكر، يريد فقط أن يغرق ويحترق بجحيم ذنوبه.

تبا لقد كان يهوي إلى القاع دون أي وخز ضمير، كان يعلم أنه لم يترك أحدا خلفه يلومه على ابتعاده أو حتى هلاكه إلى أن عادت للظهور مرة أخرى؛ " مدام هدى " أم يقول أمه؟، ابتسم في سخرية وهو ينطق اسم أمي بين شفتيه، ثم عاد لينفض رأسه من هذه الأفكار.

لا يريد أن يفكر، لا يريد أن يخرج من القاع الذي يهوي فيه كل يوم أكثر، لا يريد أن يصحو لا يريد أن يربط نفسه بالحياة، ولكنها تسحبه نحوها رغم كل ما فعلته له، رغم كل ذلك الحرمان الذي جعلته يعيشه، لا يستطيع أن

احـــتـــيـــاج

يتجاهلها، لا يستطيع أن يقصيها من حياته، لا يدري مالذي علقه بها؟! مالذي يجعله لا يستطيع أن يكرهها رغم كل ما لاقاه من معاملة سيئة، ربما لأنها أم ومهما فعلنا لا نستطيع أن نكره أمهاتنا، وربما لأنها عاشت مثله طفولة صعبة ومشتتة، وربما نظرة عينيها الضائعة ...

تلك النظرة التي تعلق بها منذ الصغر، تلك النظرة الحائرة الخائفة التائهة التي جعلته يريد حمايتها بل وإخفاءها عن الناس... اللعنة لماذا يفكر! إنه لا يريد أن يفكر لا يريد أن يصحو.

كانت تلك النظرة تسحبه إليها سحبا، وكانت كلما قست عليه أكثر برزت تلك النظرة له أكثر، وبدل أن يبتعد كان يتشبث بها أكثر، في الأول نهته عن مناداتها ماما ولأنه أحب زجرها كررها لتحدثه أكثر، وعندما أصبحت تتجاهله توقف عن مناداتها ماما فقط لتحدثه مرة أخرى، توقفت عن محادثته نهائيا توقف بدوره عن الكلام معها لكي لا تنفر منه، اعتقد أنها تنفر من كلامه معها فهجره، ثم ظن أنها تنفر منه فانكمش على نفسه واكتفى بمراقبتها من بعيد، وكان كلما غضب منها عاد وسامحها كلما تعثرت نظراتها المنكسرة بنظراته البريئة، اختفت تلك النظرة تدريجيا بعد ميلاد عمر ثم عادت للظهور يوم وفاته، ذلك اليوم...

اللعنة لماذا عاد للتفكير مجددا، هو لا يريد أن يفكر هو يكره التفكير، التفكير يؤذيه يمزقه يحرقه بنار الإثم والخطيئة، لا يريد أن يصحو أبدا، لا يريد...

أمسك سيجارة وبدأ بالتدخين طاردا بذلك آخر محاولة للتفكير من رأسه.

احـــتـــيـــاج

وصلت ياسمين إلى المستشفى وأعطت كل ما أحضرته لقصي بعد أن أخبرته بأن لديها موعدا هاما، واعدة إياه بأنها ستشرح له كل شيء في المساء.

عادت إلى التاكسي الذي كان ينتظرها خارجا وأعطت للسائق العنوان الموجود على البطاقة لتنطلق رحلتها نحو المجهول.

كانت تفكر طوال الطريق فيما ستسمعه من مدام هدى ونفس السؤال يطرحه عقلها عليها مجددا؛ كيف ستساعده ياترى؟ هو مدمن على حسب قولها، كيف ستساعده إذا؟ فهي لم تساعد مدمنا من قبل!!

كيف ستعيد لها ولدا أذاقته جميع أنواع الذل والخيبات، هذا الابن وإن وجد فلن يكون سوى حطاما، بقايا إنسان دمر فيه كل ما هو جميل، انتبهت على قول السائق :

- لقد وصلنا إلى العنوان يا آنسة .

شكرته وناولته الأجرة ثم نزلت من السيارة، وقفت لثوان تتأمل هذا المنزل الضخم المتربع أمامها، كان لفظ فيلا قليلا جدا على هذا القصر الذي يمتد بشموخ أمامها، كان منزلا مكونا من عدة طوابق واسعا ورحبا ولديه عدة ملاحق، بالإضافة إلى مسبح عملاق وحديقة فيها شتى أنواع الأشجار والزهور، كان جميلا جدا ولكن ياسمين لم تشعر بالارتياح أبدا وهي تخطو أولى خطواتها نحوه!.

احـــتـــيـــاج

بعد عدة أسئلة عند الباب واستعراض لكل الوثائق فتح الباب أخيرا أمامها، وبعد دقائق من السير وسط تلك الحديقة الساحرة وصلت أخيرا إلى باب المنزل، كانت تريد أن تقرع الجرس ولكن الباب انفتح لتظهر فتاة في العشرينيات من عمرها؛ جميلة ونظيفة ترتدي لباسا أنيقا خاصا بالخدم كما لاحظت ياسمين، استقبلتها الفتاة بابتسامة يبدو أنها قامت بها كثيرا لدرجة أنها فقدت معناها ثم طلبت منها بصوت رخم أن تتبعها إلى الصالة، هناك في الصالة وجدت هدى جالسةعلى إحدى الأرائك الوثيرة، دعتها للجلوس دون أن تنظر إليها حتى قائلة:

- تفضلي دكتورة ياسمين.

تمتمت كلمات شكر ثم جلست على أريكة مجاورة للتي تجلس عليها، بدأت هدى الكلام هذه المرة قائلة:

- إذا فقد استنفذت كل حلولك؟
- .....
- بما أنك قد لجأت إلي فلا بد أنك قد فعلت، لم يعد هذا يهم الآن، دعينا في الأهم.
- .....
- أنا مستعدة لدفع كل مستحقات العملية وما تريده والدة المتبرع، بشرط أن تعيدي لي ولدي.

احـــتـــيـــاج

تنهدت ياسمين في يأس وقالت:

- مازلت لم أفهم إلى الآن كيف سأعيد لك ولدك، أنا لم أعالج مدمنا من قبل، ثم أظن أنه في حالته هذه المصحة...

قهقهت هدى بأعلى صوتها مما جعل ياسمين تجفل وتتوقف عن الكلام، ثم قالت:

- كم أنت بريئة وساذجة يا صغيرتي، أنا لم أطلب منك علاجه، أنا أريد أن أجعل منك طعما يعيد إليه تعلقه بالحياة.

نظرت إليها في خوف ممزوج بعدم التصديق وكررت في استغراب:

- **طعم؟!**
- نعم طعم، أنت جميلة بل فاتنة، ووائل رجل وبالتأكيد سوف يتأثر بجمالك الأخاذ هذا، وسيضطر للتمسك بك فإما أن تنقذيه أو ....

سكتت هدى لتكرر ياسمين بعدها في خوف :

- **أو؟!**

قالت في صوت أقرب للفحيح:

- أو أن تحترقي معه...

احـــتـــيـــاج

نظرت إليها في عدم تصديق وظلت لثوان تحدق فيها عاجزة عن الكلام لتكمل هدى لف الخيط حولها:

- ستتزوجين وائل، وستنجبين منه حفيدي الأول، ستجعلينه يعود إلى الحياة راغما، افعلي أي شيء، لا يهمني الأمر أنا لم أخترك من فراغ، جميلة ومثقفة وواعية وفوق كل هذا تملكين مالا يحصى من النظريات الخاصة بالبشر، لا أدري ماذا تسمونها، ولكنك ستستخدمينها وستعيدينه كما سأعيد إليك والدك، ولكن في المقابل ستوقعين لي وصلا يحميني من أي تلاعب.

هزت ياسمين رأسها بعنف غير مستوعبة هذا الكلام وقالت:

- مدام هدى اطلبي مني أي شيء إلا الزواج، أنا مخطوبة ولا شك أنك تعلمين هذا، وأنا أحب خطيبي ولست مستعدة للتخلي عنه تحت أي ظرف كان.

قالت هدى بلا مبالاة وهي تهم بالوقوف:

- إذا فقد تخليت عن والدك، حسنا أظن أن لقاءنا انتهى وانتهت معه كل فرصك، يمكنك الخروج الآن...

شدت ياسمين على حقيبتها بعنف محاولة التفكير ولكن عقلها كان مشلولا، فقالت بصوت مخنوق:

- وماذا إن لم تنجح العملية، ماذا إن لم يتقبل جسد والدي ذلك القلب؟!

احـــتـــيـــاج

التفتت إليها نصف التفاتة وهي تقول:

- حينها لن أعتبرك ملزمة بشيء، ولن أكلفك بأي شيء...

تنهدت ياسمين باستسلام وقالت:

- أنا موافقة.
- حسنا إذا اعتبري أن النقود في حسابك من الآن.

احـــتـــيـــاج

خرجت من منزل مدام هدى تائهة الخطى، زائغة النظرات لا تدري أين تضع قدميها، ركبت السيارة واتجهت نحو المستشفى، أين طلبت مقابلة الدكتور أحمد في مكتبه وطلبت منه البدء في الإجراءات دون أن تخبره عن مصدر النقود، ولأنه كان يعرفها جيدا لم يحاول الضغط عليها.

حاول قصي معها كثيرا ولكنها تجاهلته كأنه لم يكن موجودا، كانت تائهة لا تدري في أي جحيم ألقت نفسها، لم يعد يهمها شيء إلا والدها، تماما كهدى التي تخلت عن حبها وقلبها وحتى إنسانيتها من أجل والدها.

أمضت الليلة بجوار والدها بعد أن طلبت من قصي المغادرة، ترجاها كثيرا كي تخبره من أين حصلت على النقود، حاول استنطاقها بكل الطرق ولكنها كانت كالحجر الأصم، صرخ وكسر ولكن دون جدوى، كانت أول مرة يفقد فيها سيطرته على نفسه، وكانت كذلك أول مرة يخرج فيها عن صورته الرصينة التي عهدتها، كان يصرخ كالمجنون وهو يحاول استنطاقها ولكن دون جدوى، صرخ وصرخ وصرخ، هزها بكل عنف ولكنها لم تستجب، وعندما تعب جثى عند قدميها وترجاها أن تخبره، أن تنطق وتخرج من حالة الذهول تلك ولكن كل ما فعلته هو أنها نظرت إليه نظرة باردة وقالت:

- قصي أنت متعب الآن عد إلى المنزل.

عاد إلى المنزل بعد أن يئس من استنطاقها، وبقيت هي طول الليل تراقب والدها.

في الصباح بدأت التجهيزات للعملية، وسويت كل الأمور المالية، وأغلقت غرفة العمليات على الحاج محمود، بينما بقيت هي تنتظر في الخارج وقلبها

احـــتـــيـــاج

يتآكل خوفا على والدها، بقي قصي إلى جانبها وتجنب الحديث عن موضوع البارحة مؤقتا، فقط أسندها وبقي معها، يراقبها بعينين خائفتين وحائرتين.

بعد ساعات استطالت كأنها دهر فتح باب الغرفة ليظهر الطبيب من خلفه، استقبلته بعيون قلقة ولكنه طمأنها بابتسامة هادئة قائلا :

- تمت العملية بنجاح، ولم يبق أمامنا سوى الانتظار.

لم تجد جوابا سوى كلمات شكر سرعان ما اختفت خلف شلال من الدموع.

ابتسم الدكتور أحمد في عطف على غير عادته وقال :

- الذي ينبغي أن تشكريه هو الله، ولا تنسي أن تطلبي منه أن تمر الساعات القادمة بسلام على والدك.
- إن شاء الله.

قالتها والدموع تخنقها من جديد، احتضنها قصي محاولا التهدئة من روعها فاستسلمت قليلا لهذا الحضن الدافئ الذي كانت تحتاج إليه أكثر من أي وقت مضى، ولكنها سرعان ما سحبت نفسها من بين يديه عندما تذكرت الثمن الذي ستدفعه مقابل كل هذا.

استغرب في البداية من ردة فعلها ولكنه سرعان ما أرجعه إلى خجلها الدائم، والذي بسببه لم يتمكن من لمس يدها حتى لحظتها، كانت أول مرة تسمح له أن يقترب منها، كان حضنا جعله يشعر وكأنه وطئ الجنة للحظات سرعان ما انفلتت منه كأن لم يطأها أبدا.

احـــتـــيـــاج

لاحت على ملامح هدى شبح ابتسامة وهي تمسك بين يديها الوصل الذي سيغرق ياسمين ويدفع بها إلى الهاوية إن هي فكرت في التراجع، كما قد وصلها منذ لحظات اتصال من المستشفى طمأنها أن العملية تسير على ما يرام، وأنها ستبلغ مبتغاها إن استمرت الأمور على ما هي عليه.

أمسكت الهاتف وطبعت عليه عدة أرقام ثم ضغطت على زر الاتصال وهي تخطط لوضع اللمسات الأخيرة على مخططها.

جاءها رد الدكتور حسان على الجهة المقابلة من الهاتف:

- ألو..
- يبدو أنك قد استمتعت كثيرا في رحلتك.
- كثيرا مدام، وهذا بفضلك بالتأكيد.
- إذا واصلت على هذا المنوال فأنت حتما ستحصل على المزيد.
- أنا في خدمتك دائما سيدتي.
- طبعا أنت تعرف الخطوة التالية.
- وجاهز لها أيضا مدام، فقط يبقى تشريفك لي.
- حسنا أنا قادمة إذا.

أغلقت مدام هدى الهاتف واكتملت ابتسامة النصر على وجهها، واكتملت الصورة أمام عينيها أيضا.

تمتمت بخفوت:

- لم يبق الكثير لتعود إلى حضني، لم يبق الكثير.

ثم نهضت لتجهز نفسها للخروج.

احـــتـــيـــاج

وصلت إلى المستشفى الذي يعمل فيه الدكتور حسان فاستقبلها عند الباب مرحبا وقادها إلى عيادته.

جلست في استرخاء وهي تقول:

- أنا أثق في عملك دكتور حسان، وأعلم أنك ستنجح في هذه الخطوة أيضا.

ابتسم في رقة وهو يقترب منها ويحقن شيئا ما في ذراعها قائلا:

- لا تقلقي سيدتي، لقد حسبت حسابا لكل شيء.

احـــتـــيـــاج

كان هائما على وجهه كعادته؛ يركب دراجته وينطلق إلى اللا مكان، يهوم في كل الأرجاء ولا يعود إلا إذا أعلن جسمه حاجته إلى تلك العقاقير، هكذا كانت يومياته منذ فر من المنزل هاربا من ذنوبه، مختبئا من إثمه، حتى تعرف على منذر وشلته التي انتشله من الضياع الذي كان يعيشه إلى ضياع أكبر منه، ضياع أخذ منه ما تبقى من روحه ليصيره مجرد جثة خالية من الإرادة والعزيمة والمشاعر.

توقف عند إحدى الأكشاك ليشتري قارورة ماء تخفف عليه بعض عطشه، وعندما هم بالدفع شعر بهاتفه يهتز داخل سترته، غريب لم يتصل به أحد منذ مدة، نظر إلى الرقم ولكنه لم يتعرف عليه، فقط كان رقما يبدو وكأنه لمؤسسة حكومية.

أجاب بارتياب وكأن شيئا ما كان يدفعه إلى الرد:

- ألو..
- مرحبا هل أنت الأستاذ وائل أحمدي؟!

ابتسم ابتسامة ساخرة وفكر؛ هل هذا اسمه حقا، يا للسخرية لم يعد يذكر حتى اسمه.

رد في جفاء:

- نعم اعتقد هذا.

احـــتـــيـــاج

واصل الصوت بنفس النبرة الباردة:

- هل هدى عبد الهادي هي أمك؟

رد وبعض الرعشات تجتاح صوته:

- نعم.
- السيدة هدى مريضة منذ البارحة في مستشفى الشفاء للأورام السرطانية، حالتها سيئة وتريد رؤيتك.
- .....
- أستاذ وائل هل أنت معنا؟ إن كنت تريد العنوان سنزودك به...

سقط الهاتف من يده معلنا نهاية المكالمة، رمى بقنينة الماء على الأرض وانطلق لا يكاد يرى الطريق أمامه.

احـــتـــيـــاج

وضعت هدى الهاتف أمامها على الطاولة واستلقت على السرير مغمضة عينيها، بعد ثوان انفتح باب الغرفة وتحت جفنين شبه مغلقين لمحت شبح إنسان داخل عليها، أنَّ قلبها في ندم ومر أمامها شريط طفولته كاملا، كانت مستعدة لأن تفعل أي شيء مقابل أن تمسح عنه تلك الذكريات السيئة، في أي عالم كانت؟ وماذا كانت تحمل بين ضلوعها وهي تذيقه كل ذلك العذاب؟!.

جلس بالقرب منها ومد يدين مرتجفتين أحاط بهما يديها وتنهد بعمق، لم تفتح عينيها بل تظاهرت بالنوم بينما بدأ هو الكلام:

- مدام هدى! لماذا عدت للظهور في حياتي مرة أخرى، لماذا أنت مصرة على أن تعذبيني أكثر؟، أنا لست عمر، ولن أستطيع أن أعيده إليك مهما فعلت، أنا لن أستطيع النظر في عينيك مرة أخرى ولن تستطيعي في المقابل فعل ذلك، فلماذا لا ترحميني وترحمين نفسك من كل هذا العذاب!

تنهد بعمق ثم واصل:

- أنت بقربك مني لن تجني شيئا سوى أن تزيدي عذابي وعذابك إلى حيث لا ينتهي، بيني وبينك الكثير من الخيبات، بيني وبينك جبال من جليد لا أحسبه سيذوب يوما، بيني وبينك وجه عمر وابتسامة عمر ونظرات عمر الشاردة.

قالها وهو يغمض عينيه بشدة محاولا طرد تلك الصورة التي ترتسم بين عينيه من فترة إلى أخرى متفننة في تعذيبه.

احـــتـــيـــاج

واصل :

- أنا لا أستطيع أن أفعل شيئا سوى أن أختفي إلى من أمامك إلى الأبد لأن بقائي يعني عذابك، ربما أنت لا تدركين الأمر، ربما تحاولين في يأس تعويض عمر، ولكن الأمر ليس بهذه السهولة، أنا لست هو، ولن تستغرقي كثيرا من الوقت حتى تتأكدي من ذلك، حتى تعرفي أني لست الشخص الذي تبحثين عنه، حتى تدركي أني عذابك، أنت لن تستطيعي مسامحتي أبدا لأني أذكرك فيه، في كل نقطة مني سترينه، دعينا نكن صرحاء من البداية أنت تبحثين في المكان الخطأ عن الشخص الخطأ.

قالها منحنيا نحوها طابعا على جبينها قبلة أودعها كل مشاعره المضطربة الضائعة، ثم هم مبتعدا لولا يدها التي أمسكت بيده بإحكام، التفت إليها محاولا تخليص يده ولكنها احتضنته بكل قوتها من الخلف قائلة:

- وائل، أنا أعلم أنك لست عمر، ولا أريدك أن تكونه، ولا أن تعوضني عنه، أنا أريدك أنت أريدك أن تكون وائل، أن تعيد إلي بكري الذي عذبته، والذي أنا الآن مشتاقة لابتسامته وأحترق لأسمع كلمة ماما تخرج من فمه.

تنهد بعمق وأبعدها عنه بلطف ثم قال:

- مدام هدى، أكرر لك أنت تبحثين في عن عمر، تريدين أن تعوضيه، تريدين أن أنسيك فقده، ولكني لست هو ولن أكونه...

احـــتـــيـــاج

ثم صمت قليلا وواصل في حشرجة:

- ولست وائل أيضا، أنا لا شيء، لا أحد، أنا مجرد ظل، بقايا إنسان ينحدر منذ سنوات نحو الهاوية وسأنتهي ما إن أصل إلى قعرها، ولا أظن أنه بقي الكثير.

أراد الانصراف ولكنها شدت على يده أكثر قائلة:

- وائل بني، لم يبق أمامي الكثير لأعيشه، بضعة أشهر لا أريد أن أحياها بعيدة عنك، إن ذهبت أنت فلا أريدها، سأسلم نفسي للموت وأريحك وأرتاح.

زفر بقوة وتنهد بعمق أكبر، ثم خرج من الغرفة.

شعرت بأنها بحاجة إلى البكاء فبكت بحرقة، بكت نفسها وبكت ابنا حولته دون أن تشعر إلى خيال دون مشاعر أو أحاسيس.

احـــتـــيـــاج

مرت ثلاثة أيام منذ أن أجرى والدها العملية والأمور تسير من حسن إلى أحسن؛ استيقظ وبدأت حالته تتحسن، ولكن السيدة هدى لم تتصل إلى الآن، هل يعقل أن تكون قد تراجعت عن قرارها؟

مستحيل مليون دولار ليس بمبلغ هين يعطيه المرء بهذه البساطة، خاصة إذا كان هذا الشخص هو مدام هدى بكامل عجرفتها وتسلطها.

قطع صوت والدها الواهن حبل أفكارها:

- أين ذهبت بفكرك يا صغيرتي، هل أنت على ما يرام.
- أنا بخير أبي، لا تقلق.
- هل يوجد شيء بينك وبين قصي، تبدوان متخاصمين بالكاد تتكلمان!
- كلا، لا يوجد شيء بيننا فقط نحن نركز كل اهتمامنا عليك أنت.

نظر إليها في شك، ولكنه لم يشأ أن يضغط عليها، كان يراقبها منذ أن استيقظ وهو موقن بغريزة الأبوة أن ابنته ليست بخير، كان يشعر بعينيها تستغيثانه، تخبرانه بأنها واقعة في ورطة، سألها أكثر من مرة عن حالها ولكنها كانت تخبره أنها على مايرام، هي كانت تكذب وهو متأكد من هذا، عرف هذا من حركة يديها، كانت تحرك يديها بعصبية وهذه علامة الكذب عند ابنته فلطالما كانت يصادقة لهذا تتوتر عندما تكذب فتحرك يديها بعصبية وتهرب عيناها من المواجهة.

تنهد الحاج محمود وهو يدعو الله في سره أن يساعد ابنته ويكون معها في كل مراحل حياتها، فقد عانت من طفولة صعبة وحملت من الهموم ما ينوء على حمله الرجل الكبير فما بالك بطفلة صغيرة، لكنها صبرت وتخطت كل

احـــتـــــيـــاج

ذلك ووقفت على قدميها مجددا بثبات أكبر، استبدلت نظرتها المشتتة بنظرة قوية واثقة فما بالها اليوم تتشتت عيناها وتهرب بنظراتها من نظراته!، هي الآن نفسها الطفلة الصغيرة ذات النظرات الخائفة الضائعة، وهو يحاول بكل ما أوتي من قوة مساعدتها، ولكنها تنكر، تنكر حاجتها إلى مساعدته.

طلبت الإذن منه لتخرج قليلا ثم خرجت إلى الحديقة وأخذت تتنفس بعمق محاولة تهدئة نفسها، سكوت هدى بهذه الطريقة لم يكن يريحها أبدا، كانت تخاف أن تعود لتطالب بالمبلغ من جديد، أن تتهور وتخبر والدها بما فعلت، لن يسامحها أبدا إن عرف أنها باعت نفسها للمجهول مقابل حياته، كما أنها تخاف أن يتأذى إن سمع كلاما من هذا القبيل.

أغمضت عينيها في تعب فارتسمت ملامح قصي أمام عينيها لتفتحتهما ببطء وهي تفكر؛ ترى هل سيسامحها قصي إن عرف بما فعلت؟، قصي الذي يحبها أكثر من الدنيا وما فيها، قصي الذي قد يحرق الدنيا كلها من أجل عينيها، قصي الذي لا ينام الليل إلا إذا سمع صوتها، كيف سيتقبل فكرة الانفصال، ماذا ستكون ردة فعله، ثم ماذا ستكون ردة فعل والدها؟!.

كانت تفكر وتفكر دون توقف، تشعر وكأنها عصفور حشر داخل قفص، خائفة من الخطوة التي ستتخذها هدى وفي نفس الوقت تجد نفسها تستعجل هذه الخطوة لكي ترتاح، فكرت في أن تتصل بها ولكنها تراجعت، ستترك الأمر للقدر عله سيكون رحيما بها هذه المرة.

احـــتـــيـــاج

قامت من مكانها عائدة إلى غرفة أبيها وعندما همت بالدخول وجدت قصي جالسا إلى جانبه، فاستدارت راجعة لولا صوته الذي استوقفها:

- ياسمين انتظري، لدي كلام أريد أن أقوله لك.

وقبل أن ترد وجدته واقفا إلى جانبها، اقتادها إلى كافيتريا المستشفى، كانت الكافيتيريا تعج بالناس وبالكاد استطاعا إيجاد طاولة فارغة في إحدى الزوايا، جلست مكتفية بالصمت، محاولة تجاهل كل هذه الأعين المتطفلة التي اتجهت صوبهما، فيما بدأ هو الكلام غير مبال بكل هذا الصخب حوله:

- أظن أن هناك كلاما كثيرا عالقا بيننا، وعلينا أن نقوله لنستطيع الاستمرار، كلام أجلته هذه الأيام بسبب حالة أبيك وبما أنه يتحسن بسرعة الآن فأظن أنه لم يعد هناك داع إلى تأجيله، لهذا سنتحدث وسنبدأ من البداية؛ من أمر المبلغ، أنت تعلمين أني لن أكتفي بالصمت منك هذه المرة وتعلمين جيدا أنك مدينة لي بتفسير.

سكت تاركا لها مجالا للكلام ولكنها اكتفت بالصمت فقطب حاجبيه باستياء قائلا:

- ياسمين قولي شيئا، لا تصمتي، أخبريني فيم أخطأت؟ لماذا تعاقبينني بهذه الطريقة؟ لطالما كنت عاجزة عن إخفاء انفعالاتك، لطالما كانت عيناك تبوحان بكل شيء، بمجرد نظرة مني إليهما إدرك أنك بحاجة إلي، أدرك بأنك واقعة في ورطة وتريدين مساعدتي، أخبريني مالذي حدث؟ مالذي تخفينه عني؟

احـــتـــــيـــاج

قررت أنها يجب أن تضع حدا لكل هذا، هي تشعر به، تشعر بمعاناته، تشعر بالشفقة عليه، تعلم جيدا أنه لن يتركها دون أن يعلم الحقيقة، وخائفة أيضا من أن يبحث وراءها فيكتشف كل شيء، لهذا أرادت أن تقطع عليه كل الطرق، قررت أن تمثل ثم تتقن الدور جيدا بشكل لا يدع أي مجال للشك، قالت في صلابة لا تدري من أين أتتها:

- قصي أنا قررت في الأيام الماضية أمرا وأجلت مفاتحتك به بسبب تدهور حالة والدي فجأة ولكن أظن أن الوقت قد حان لأخبرك بكل شيء، صمتت قليلا، ثم واصلت:
- يقال أن المحن تكشف معادن الناس وأنا اكتشفت معدنك بعد هذه المحنة التي حلت علي، لا أخفيك كنت أنتظر منك أن تفعل المستحيل لمساعدتي ولكنك خيبت كل آمالي.

صمتت مرة أخرى لترى وقع كلماتها عليه، تأملت في برود مصطنع ملامحه المتفاجئة ثم واصلت:

أعلم أنك حاولت ولكنك لم تفعل شيئا يذكر، لذلك قررت أنك لست الرجل المناسب لأكمل حياتي معه، لا أعلم ولكني أريد شخصا يحرق الدنيا بل يحرق نفسه من أجلي، كنت أنتظر منك أن تصنع معجزة ما، ولكنك وقفت عاجزا أمام أولى محناتنا معا، لهذا لا يمكنني المواصلة معك في طريق واحد، جمعت كل طاقتها قم قالت بصوت حاولت جعله قويا:

- قصي أريد أن ننفصل.

احـــتـــيـــاج

انتفض واقفا في ذهول، أمسكها من كتفيها وأقامها حتى صارت موازية له وقال بصوت مخنوق:

- لم يبق شيء لم أفعله صدقيني؛ لم يبق أحد لم أقصده، لم يبق حل لم أجربه، عرضت كل شيء عندي للبيع؛ سيارتي، بيتي، مكتبي، ماذا تريدينني أن أفعل أكثر!؟
- صدقيني حتى لو طلبت روحي مني، لن أتوانى في أن أسلمها لك.

أشحات ببصرها عنه، ثم دفعته عنها في لطف قائلة:

- لا أدري، ولكن كان عليك أن تفعل أكثر!.

قالتها منسحبة إلى الخارج ولكنه لحق بها وأمسك بها من يدها ساحبا إياها إليه حتى كادت أن تلامس صدره، ثم رفع رأسها بأصابعه حتى التقت عيناه بعينيها وقال:

- أنا لم أقتنع بأي حرف قلته، ولن أتركك حتى أحصل على الحقيقة كاملة.

نظرت إليه في تحد ثم قالت :

- أنا لم أعد أحبك قصي، لا داعي لأن تحاول.

سحبها إليه أكثر، ودنا بوجهه من وجهها حتى كاد يلامسه ثم قال:

- قوليها وأنت تنظرين في عيني!

أشاحت بوجهها عنه في عجز محاولة تجاهل القشعريرة التي غزت جسدها بمجرد أن لفحتها أنفاسه الحارة ودفعته راكضة خارجا.

احـــتـــيـــاج

انتبه إلى النظرات الفضولية حوله فأحنى رأسه وتنحنح ثم خرج هو الآخر.

وصلت إلى إحدى الحمامات الخاصة بالنساء، دخلت إليه مغلقة الباب خلفها ثم أسندت ظهرها إليه وانهارت باكية.

كيف ستقنعه بأنها توقفت عن حبه، كيف ستستطيع إقناعه وهي تنهار بمجرد أن تواجه نظراتها نظراته!!.

احـــتـــيـــاج

فكرت هدى في أنها قد أصبحت جاهزة للخطوة القادمة وهي تتأمل سحنتها المتعبة في مرآة صغيرة تحملها في يدها، أشارت بنظرة من عينيها إلى الدكتور حسان الذي بادلها نفس النظرة ثم اتجه خارجا.

استرخت على السرير وهي تدعو الله أن لا يكتشف وائل لعبتها البريئة قبل أن تصل إلى مبتغاها، كانت تريد بكل صدق أن تعيده إلى حضنها، أن تعوضه على كل ما فاته وكل ما حرم منه، استيقظت الأمومة فيها دفعة واحدة، كانت تتألم بمجرد مرور خيال ذكرى طفولته بين عينيها!

أي أم كانت، كيف استطاعت أن تعذب فلذة كبدها بتلك الطريقة، يبدو أن مروان استهلكها لدرجة أنها لم تعد تميز الصحيح من الخاطئ من أفعالها، ولكن الوعي اجتاحها فجأة بعد أن وجدت نفسها وجها لوجه أمامه؛ بكرها الضائع الذي ضيعته بأفعالها الساذجة، نظرته الكسيرة انتشلتها من سكرتها ورمت بها في أرض الوعي فجأة، تفطنت لفداحة ما كانت تفعله، استيقظ الحب كمارد في قلبها واكتشفت أنها بحاجة إليه أكثر من أي وقت مضى، بحاجة إلى سماع لكنته المتعثرة وهو يقول "أما" بدلا من ماما، لسماع ضحكاته البريئة وهو يلاعب مربيته، تلك الضحكات التي شعرت بالغيرة لأنها وجهت لغيرها بعد سبع وعشرين سنة من سماعها!!

تنهدت في عجز، وهي ترجو الله أن تنطلي عليه آخر خطوة، وتمنت من كل قلبها أن تستطيع ياسمين أن تبث فيه حب الحياة مرة ثانية.

كان يجلس في مكانه المعتاد معزولا عن الدنيا تائها عن الكل، لا يدري الناظر إليه هل هو يفكر أم أنه غائب عن الدنيا ومافيها، أما هو فقد كان

احـــتـــيـــاج

يفكر، لم يكن عقله يتوقف عن التفكير أبدا، رغم أنه يحاول على قدر استطاعته منع نفسه، عاد إلى وعيه على صوت أحدهم:

- أستاذ وائل أريد أن أحدثك في أمر.

تنهد في نفاد صبر، فهو منذ مدة لم يسأل عليه أحد فما بال الزيارات والاتصالات لا تتوقف عنه مؤخرا، رفع عينيه إلى الشخص الواقف أمامه ومن هيئته الرسمية عرف أنه من رجال أمه، نظر إليه نظرة زائغة وهو يشعر بتوتر خفي لا يدري مصدره، واصل الصوت في إصرار:

- أستاذ وائل، أمك في حالة سيئة جدا ولا أدري هل ستلحق بها أم...

أغمض عينيه في استسلام وسار أمام الرجل متجها معه إلى سيارته.

بعد فترة قصيرة وجد نفسه أمام المستشفى الذي ترقد فيه أمه، وبعد عدة معاملات وجد نفسه يواجه باب غرفتها، سحب الهواء بعمق ثم فتح الباب ليدخل، لا يدري لماذا لا يستطيع تجاهلها، لماذا لا يغادر بعيدا لتنقطع عنه آخر أخبارها، لماذا لا يزال يشعر بتلك الرغبة في حمايتها، ولماذا تزداد تلك الرغبة بشكل ملح مؤخرا!!

وقف يواجهها في عجز، كانت مستلقية على السرير تغمض عينيها في استسلام وديع، للحظة تخيلها ميتة وتخيل نفسه يواجه جثتها، أرعبه هذا الخاطر وشعر برعشة تحتاج كل نقطة من جسده، اقترب منها في حرص ومسح بيده على ملامحها المتعبة، تنهد في أسى، هذا الشعور بالعجز الذي يتنامى داخله بمجرد أن يواجهها يتعبه كثيرا، تمنى لو كان يستطيع أن يقسو،

احـــتـــيـــاج

أن يتجاهل، رغم أنه فقد كل أحاسيسه، وأصبح مجرد ميت على قيد الحياة، رغم أنه يشعر باللامبالاة تجاه أي شيء، غير أن مشاعره تجاهها بالتحديد ترفض أن تموت، تماما كجرح نازف يرفض أن يندمل أبدا، تنهد في عجز وتساءل؛ ترى مالشيء السيء الذي فعله في حياته حتى يعاقب بالحنين إليها هكذا، لم يتأخر عقله عن إجابته إذ مرت صورة أمام عينيه جعلته يدرك جيدا ماذا فعل!

فتحت عينيها في تعب حقيقي هذه المرة، مرت ثلاثة أيام دون أن تتذوق فيها شيئا، مما جعلها تشعر بتعب كبير وإرهاق لم تشعر به من قبل، مدت يديها المرتجفتين لتمسك بكلتا يديه بين يديها، وهي تترجاه بعينيها أن لا يهرب منها، استسلم لرجاء عينيها وترك يديه بين يديها، نظر إليها للحظة ثم أخفض بصره يتجنبها، قالت بصوت مخنوق:

- أما آن أن تحن على هذه العجوز!

ظل مطئطئا رأسه وقال بصوت أجش:

- ألا تتعبين مدام هدى؟! لماذا تصرين على أن تعذبي كلينا بهذه التصرفات.
- عذابي هو بعدك.
- عذابك هو قربي، وستفهمين هذا مع الوقت.

شدت على يديه بضعف خائفة من أن ينساب من بين يديها، كأنه قطرة ماء غالية فقدانها يعني موتها.

احـــتـــيـــاج

واصلت :

- إن كان قربك يعني عذابي فمرحبا بهذا العذاب، بني أرجوك لا تتركني، لا تسلمني للموت، صدقني إن تركتني فسأموت فأنا لا أريد حياة لست موجودا فيها.
- ولكنك ستموتين في قربي أيضا.
- لا بأس المهم أن تكون قربي.

تنهد في استسلام متذكرا كلام الطبيب:

- مدام هدى ترفض الطعام والشراب منذ ثلاثة أيام، وهي فعليا تستلم للموت، جسدها لن يقاوم أكثر من أسبوع، لأن السرطان قد قلص من قدرة جسدها على التحمل.

قال بصوت مبحوح:

- حسنا..

ابتسمت ابتسامة متعبة وشدت على يديه أكثر ثم قالت:

- كنت أعلم بأك لن تتركني، أنت لا تعلم كم أسعدتني بهذا ولكني أريد منك أمرا آخر، أرجوك لا تردني وأنا على حافة الموت.

احـــتـــيـــاج

أغمض عينيه بشدة متوجسا من هذا الطلب الذي انقبض له قلبه قبل أن تنطق به، لاحظت سكونه فأردفت قائلة:

- أنا لن أعيش أكثر من سنة، سنة واحدة أريد أن أعيشها بجانبك أريد أن أراك فيها سعيدا.

صمتت قليلا ثم أردفت بصوت مرتجف:

- وائل..أريد أن أرى أطفالك.

كانت تعلم أنه ليس الزمان ولا المكان المناسبين لقول هذا ولكنها تعلم أيضا أنها لم تكن ولن تكون أبدا أكثر تأثيرا فيه مما هي عليه الآن.

تأملت ملامح الاستنكار التي علت وجهه، للحظة رفع عينيه لتواجه عينيها، رأت الصدمة تعلو وجهه ورأت عينيه بوضوح لأول مرة منذ غادرها، شلها الانطفاء التي رأته فيهما، لطالما كان وائل ذا عينين سوداوين سواد الليل البهيم ولكن بريقا لامعا كان يزينهما دائما، كانت عيناه كليلة يزينها بدر منير، ولكن الظلام الذي رأته فيهما الآن أفزعها لدرجة أنها شعرت بالرعب حقا.

بقي يتأملها للحظات مشلولا عن التفكير، مصدوما من هذا الطلب المفاجئ الذي رمته في وجهه كقنبلة فتتته إلى أشلاء.

شدت على يديه أكثر وأكثر وهي تدعو الله في سرها ألا تفقده مرة أخرى بسبب تهورها، ولكنها كانت تريد أي شيء يعلقه بالحياة، وفكرت في أن أسرة صغيرة من زوجة وأطفال قد تنتزعه من كل هذا الضياع الذي يعيشه،

احـــتـــيـــاج

خاصة إن كانت الزوجة مثل ياسمين، جمال وفتنة وفوق كل هذا مثقفة وواعية ومتفهمة.

بقي جامدا لوقت شعرت بأنه يمتد لسنوات ثم سحب يديه بين يديها وغادر الغرفة متجاهلا نداءاتها المتوسلة.

جلست تلوم نفسها على تسرعها، ربما كان يجب عليها أن تعطيه فرصة حتى يتقبلها... يتقبلها!! كررت هدى الكلمة في سخرية، هو لم يتقبلها ولن يتقبلها وهي تعلم ذلك، هو فقط يؤدي واجب أمومة لم ينعم بها يوما.

خرج وائل من المستشفى والصدمة لا تزال تعصف به عصفا، لقد توقع كل شيء إلا هذا الذي سمعه من أمه الآن، أيعقل أنها تنتظر منه هو الضائع الطائش الذي لا يعرف كيف يتعايش مع نفسه، أن ينشئ عائلة؛ أن يعلق به امرأة ثم طفلا بريئين!؟

ما ذنب هذا الطفل الصغير الذي سيأتي إلى الدنيا ليجد أبا ضائعا وأما رخيصة وافقت على بيع نفسها من أجل حفنة مال، وهل سيسامحهم هذا الطفل عندما يكبر؟ هل سيستطيع النظر في عينيهما إن هما جاءا به إلى هذا المحيط الموبوء؟.

كان يريد أن يترك كل شيء خلفه ويهرب بعيدا ولا يعقب ولكن حال أمه بات يخيفه حقا، هو لا يعلم حقيقة شعوره تجاهها، يريد من كل قلبه أن يكرهها، أن يقتص لنفسه عن كل تلك السنوات العجاف التي عاشها بقربها ولكنه لا يستطيع، مهما حاول ومهما فعل وكلما أراد أن يكرهها أكثر عاد وتعلق بها أكثر، ولكن آخر طلب لها صعب بل مستحيل!.

احـــتـــيـــاج

كان كل يوم يمر يعطي ياسمين أملا وإن كان واهيا في أن تكون هدى قد غيرت رأيها أو ربما تجاهلت الأمر برمته، لربما فكرت في الأمر واكتشفت أخيرا أنه ضرب من جنون، أو ربما لم تستطع إقناع ابنها بفكرة الزواج، ولكنها سرعان ما تجهض ذلك الأمل عندما تتذكر عجرفة مدام هدى وقسوتها وإصرارها على تحقيق مرادها.

مر يومان منذ آخر مشادة كلامية بينها وبين قصي، بدأت بعدها بتجاهل اتصالاته التي لا تنتهي، وحتى عند زياراته كانت تلتصق بأبيها ولا تتحرك كي لا يجد فرصة للحديث معها، لم تكن تريد قطع علاقتها معه خاصة مع تأخر مدام هدى في الاتصال، وفي نفس الوقت لا تريد أن تعطيه أملا واهيا، لهذا قررت التهرب منه إلى غاية اتخاذ مدام هدى الخطوة التالية.

كانت نظراته تسألها في حيرة، تلومها، تجلدها بسياط الذنب، هي لا تنكر أنه فعل كل ما يمكنه، وتعلم أيضا أنه مستعد للتضحية بحياته من أجلها ولكنها فتشت في عقلها عن أي سبب فلم تجد غير هذا السبب الذي لم يصدقه ولم ينطل عليه.

كان الحاج محمود يراقب نظراتها في صمت، هو يعرف أن بينهما كلاما كثيرا عالقا، ويعلم أيضا أن ابنته تتهرب من قصي، لهذا خاطبها قائلا :

- ياسمين، ابنتي احضري لي كوب ماء بارد من المطبخ.
- ولكن أبي يوجد بالفعل ماء أمامك!
- ولكن هذا الماء لم يعد باردا، هلا جددته يا ابنتي؟

احـــتـــيـــاج

نهضت في استسلام إلى المطبخ بينما غمز هو قصي ليلحق بها وعندما أرادت الخروج وجدته أمامها سادا عليها الطريق بصدره العريض، حاولت تحاشيه ولكنه أخذ الكوب من يدها ووضعه على الطاولة ثم أمسك بيدها وأجلسها على أحد الكراسي وسحب كرسيا وجلس قبالتها، حاولت النهوض ولكنه أجلسها مرة أخرى بحركة سريعة، وقال:

- إلى متى ستستمرين بالهرب من مواجهتي؟
- .....
- أتعلمين؟ هذا الهروب يثبت لي شيئا واحدا، أنك كنت تكذبين فيما قلته آخر مرة!
- قصي أنا قلتها لك من قبل وسأكررها، أنا لا أحبك وقررت الانفصال عنك! ومن الاحسن ل....
- قررت الانفصال!!
- .....
- منذ متى يقرر أحدنا عن الآخر؟

تنهدت في استسلام، أرادت أن تسترسل أكثر ولكنه حصرها في زاوية ضيقة كعادته، لطالما كان هكذا متكلما حذقا لا تستطيع التغلب عليه في مشادة كلامية أبدا!

احـــتـــيـــاج

واصل مستغلا الصمت الذي تغرق فيه:

- نحن بحاجة إلى المصارحة، وبالمصارحة فقط نستطيع حل مشاكلنا، أخبريني الحقيقة وأنت تنظرين في عيني دون أن تهربي من نظراتي، وأنا أعدك إن أقنعتني بكلامك أن أنسحب في صمت.

قالت في صوت هامس:

- لماذا لا تفهم، لم أعد أحبك.

تلعثمت ثم أكملت في حشرجة:

- أنا أحب شخصا آخر، رجلا تعرفت عليه في الفترة الأخيرة، كنت أظن أني أحبك حتى تعرفت عليه وعرفت الحب الحقيقي معه، لأكتشف أن ما كنت أكنه لك لم يكن سوى شعورا لا يتعدى الإعجاب.

رفعت عينيها إليه لترى ردة فعله، ولكنه أطلق ضحكة ساخرة، وقال:

- هل تسمين هذا مصارحة؟!
- .....
- أريد التعرف على هذا الرجل!، وعندما أراه وأطمئن عليك معه سوف أنسحب من حياتك بكل هدوء.

لم تعقب بل قامت من مكانها واتجهت إلى غرفة أبيها، لم يحاول منعها بل اتكأ على الكرسي وبدأ يفكر.

احـــتـــيـــاج

هو يعلم أنها تكذب لتهرب منه، من نظراته وأسئلته ومشاعرها نحوه، ولكن صمتها هذا يدفعه نحو الجنون، ترى أي مشكلة قد وقعت فيها؟ وأي أمر جلل هو هذا الذي جعل ابتسامتها الجميلة التي لم تكن تفارق وجهها تغادرها فجأة؟.

بعد أن فكر مليا قرر أن يعرف ما هو هذا الأمر، وقرر أن يبحث حتى لو كلفه الأمر صدامات معها، لأنه يعرف جيدا أنها لم تكن أبدا تحب من يبحث وراءها.

احـــتـــيـــاج

كانت هدى مصرة على أن تكمل ما بدأت به حتى لو كلفها هذا حياتها، كان الشعور بالذنب يعصف بها عصفا لهذا قررت أن تواصل امتناعها عن الطعام والشراب حتى يرضخ وائل لطلباتها، هي تعلم أنها تطلب منه ما هو فوق طاقته ولكنها كانت واثقة من أنه سيرضخ في الأخير.

شعور غامض بأنها ما تزال تحتل مكانة في قلبه يجتاحها، هي تعلم أنه طيب، طيب وطاهر لدرجة أنه لا يمكن أن يحمل في قلبه حقدا، فقط غضب لا ينفك أن يزول مهما استمر.

نظرت إلى الدكتور حسان الذي كان يجلس إلى جوارها وأعطته إشارة ضعيفة من رأسها كلفتها جهدا جهيدا، ثم ألقت برأسها المتعب على الوسادة، عبث الدكتور حسان بأزرار الهاتف قليلا ثم ضغط على زرالاتصال، ليأتيه الرد بعد بضع رنات:

- ألو!؟
- وائل أحمدي؟
- .....
- أمك...

وقبل أن يكمل كلامه، فاجأته رنات متقطعة توحي بقطع الاتصال، نظر في عدم فهم إلى مدام هدى التي أغمضت عينيها بشدة، فيما حقنها هو بحقنة منومة لتخفف عنها بعض الشيء، فهي لم تكن ترضى بالطعام ولا الشراب ولا حتى بالمصل المغذي، وكأنها كانت تنتقم من نفسها بهذه الطريقة ولم تكن ترضى إلا بحقنة منومة تريحها من حين لآخر.

احـــتـــيـــاج

وكأنه كان ينتظر ذلك الاتصال ليتخذ قراره، يبدو أن مدام هدى مصممة على أن تصل إلى مرادها، وعقله هو تعب من التفكير لدرجة أنه لم يعد يريد أن يفكر، لهذا قرر بأنه سيمنحها ماتريده وليحصل ما يحصل، هو حتما ليس أول ولا آخر شخص ينجب طفلا يرمي به إلى المجهول، كل ما يهم الآن هو أمه وهو رغم كل شيء لم يكن يريد أن يخسرها.

وصل إلى غرفتها وفتح الباب ليجدها نائمة مستسلمة، ملامحها كانت غائرة وشاحبة وكأنها كبرت سنوات كثيرة في أيام معدودة.

جثى أمامها وأمسك بيديها وحدثها بصوت مرتعش:

- مدام هدى!؟

لم تستجب له فكرر النداء هذه المرة بصوت أقوى قليلا:

- مدام هدى !!

مسح بيديه المرتعشتين على وجهها المتعب وأعاد النداء بصوت أعلى:

- مدام هدى!!!

شعر بتوجس من نومها العميق هذا وأخذ يهزها بلطف وهو يناديها دون توقف، وكانت كلما قابلته بالصمت هزها بشكل أعنف وزاد من صرخاته أكثر، كان يريد أن يقول أمي، أن يصرخ بها بأعلى صوته ولكنه كان يخاف، تماما كما كان يخاف عندما كان طفلا، أن يناديها به فتنبذه كما كانت تفعل.

احـــتـــيـــاج

فتحت عينين متعبتين لتلتقي نظراتها بنظراته، كانت الدموع قد بدأت تفر من عينيه وصوته ينسحق تحت وقع هذه العبرات، انتبه إليها بعد فترة فتوقف عن هزها، أسندها على الوسادة بلطف وقال بصوت متحشرج:

- مدام هدى هل أنت بخير؟!

ابتسمت في تعب ابتسامة حانية، وقبل أن تفتح فمها لتتحدث ارتمى في حضنها وقال :

- أنا موافق.

بذلت جهدا لترفع يدها إلى رأسه، ثم بدأت تمسد على شعره في ضعف، وهي لا تدري أتشعر بالسعادة لأن ولدها رضخ أخيرا، أم تشعر بالحزن لأنها رمت به إلى هذا المصير الأسود.

احـــتـــيـــاج

واصلت ياسمين تجاهل قصي وتهربها منه طيلة الأيام التالية، لم تكن تدري بماذا تجيبه، كانت نظراته تتعقبها، تسألها، تحاصرها، وكانت هي في المقابل تتهرب منتظرة بقلب متوجس خطوة مدام هدى المقبلة.

كانت جالسة في غرفتها عندما رن جرس هاتفها مستقبلا مكالمة منها، خفق قلبها بشدة وهي تدعو الله أن تكون قد ألغت كل مخططاتها السابقة، كانت تريد أن ترمي بالهاتف لتحطمه إلى قطع صغيرة وتهرب إلى حيث لا توجد مدام هدى ولا ابنها ولا هذا المصير المجهول الذي ألقت بنفسها بين براثنه، ولكن لم يكن يسعها إلا أن تستسلم لهذا المصير الذي يسحبها نحوه، بعد تردد دام لحظات أمسكت بهاتفها وردت على المكالمة قائلة بصوت أبح:

- مدام هدى؟.
- أظن أنك مازلت تحافظين على وعدك، أي أن صفقتنا ستتم دون مشاكل؟!.

شعرت بموجة من الاحتقار تجتاحها بسبب هذا البرود وهذه الفضاضة التي تستعملها، كيف يمكنها أن تصف مستقبلها ومستقبل ابنها بالصفقة؟!

قالت محاولة لعب آخر ورقة لديها:

- مدام هدى أنا مستعدة لأن أعمل طوال حياتي خادمة تحت قدميك بشرط أن تلغي شرط الزواج من الاتفاق، سأفعل كل ما في وسعي وسأتدبر المبلغ وأعيده لك كله...
- يبدو أنك لم تفهمي كلامي جيدا، على كل أنا لن أعيده مرة أخرى، لذا انتظري ردي غدا صباحا.
- مدام هدى، انتظري، أنا موافقة.

احـــتـــيـــاج

ابتسمت هدى في رضا قائلة:

- إذا بقي لنا الاتفاق على موعد الزفاف.

تنهدت ياسمين في أسى، وقالت:

- أرجو أن تمنحيني فرصة حتى اقنع والدي.
- أسبوع واحد في يدك، تقنعين فيه والدك وتجهزين فيه نفسك، ولا تنسي لا أريد أن يعرف وائل أي شيء عن تفاصيل صفقتنا ولا عن أمر المبلغ ولا عن عملية والدك، أيا ما كان ظنه حول هذا الزواج ستصدقينه وتتصرفين على هذا الأساس.

همت بإغلاق الهاتف لولا صوت ياسمين الذي استوقفها:

- أنا أيضا لدي شرط.
- أصبحت تملين الشروط أيضا! هه لا بأس كله يهون من أجل عيون كنتي الحلوة، تفضلي.
- أنا أيضا لا أريد أن يعرف والدي أو أي أحد من معارفي بهذا الأمر، سأقنعهم أن هذا الزواج قام على أساس الحب وستتصرفان على هذا الأساس.

ابتسمت هدى على الجانب الآخر من الهاتف لجرأتها وقوتها التي زادت من إعجابها بها، كانت هي النموذج الذي تمنت هدى أن تكونه يوما قبل أن يسرق منها مروان مستقبلها وأحلامها، لهذا اختارتها دون غيرها، منذ أول مرة وقعت عينها عليها في السوبر ماركت، جرأتها ودفاعها عن ذلك الأعرج، طريقتها في وقوفها في وجه تلك المجموعة من المتنمرين، كلامها

احـــتـــيـــاج

فصاحتها قوتها، كل شيء فيها يشبه هدى لو لم يشوهها مروان، أغلقت الهاتف وقالت بخفوت:

- هذا ما يحتاجه وائل بالضبط، الجمال والذكاء والقوة!!

سرعان ما عادت الجدية لترتسم على ملامحها مرة أخرى وهي تتذكره، منذ أن استعادت عافيتها أي منذ ليلتين لم يعد إلى البيت، اختفى بمجرد اطمئنانه على حالتها، تساءلت في أسى؛ ترى هل سيستقر ما إن يتزوج أم أنه سيمضي ما تبقى من حياته على هذا النحو من الانقطاعات والاختفاءات المتكررة!.

احـــتـــــيـــاج

رمت ياسمين الهاتف بعشوائية ليصطدم بالحائط ويتفكك إلى قطع صغيرة، ضمت ركبتيها إلى صدرها ووضعت رأسها في حضنها لتنخرط في بكاء مرير، لقد وقع الأمر الذي كانت كل هذه الفترة خائفة منه، تساءلت في مرارة؛ كيف ستقنع والدها بأنها عدلت فجأة عن الزواج بقصي الرجل الذي كانت مولعة به، لتقرر فجأة الزواج بشخص آخر لا تعرف حتى كيف هو شكله أو هيئته!!.

ماذا ستكون ردة فعله إن علم بأنه سكير، بل الأدهى من ذلك أنه مدمن!، حتى إن انطلت الحجة على والدها فلن تنطلي على قصي أبدا، كيف ستقنعه أنها لم تعد تريده وعيناها تتفننان دائما في فضحها وفضح حاجتها إليه!.

بعد فترة لم تعلم مداها نهضت من مكانها واتجهت إلى الحمام، وقفت تحت المياه الدافئة علّها تخفف من حدة التوتر الذي كان يعصف بها عصفا، ثم ارتدت ملابس مريحة واتجهت إلى غرفة والدها تجر الخطى جرا، لاحظ ارتباكها وخوفها فاستقبلها بابتسامة حانية وضمها إلى صدره بقوة، تعلقت به وكأنها تتعلق بآخر قشة تربطها بالدنيا، كانت تشعر بأنها ضائعة، خائفة لأول مرة في حياتها منذ سنوات، تبحث عن قوتها وصلابتها فلا تجد إلا الهشاشة والخواء.

بعد مدة سحبت نفسها من بين أحضانه، ثم جلست لتواجهه على السرير قائلة:

- أبي، إلى أي مدى تثق بي؟
- ثقتي بك بلا حدود وأنت تعلمين ذلك، ولكن لماذا السؤال؟.

احـــتـــيـــاج

ارتبكت قليلا ثم عادت واستعادت رباطة جأشها وقالت:

- إلى أي مدى تثق في قراراتي؟
- إلى درجة أن لا أراجعها بعدك أبدا.

ابتسمت في ارتياح وواصلت:

- أنا لم أعد أريد الزواج بقصي.

نظر إليها للحظات والصدمة تعقد لسانه، ثم قال:

- ماهذا الكلام يا ابنتي؟ أنت تحبينه كثيرا على حسب ما أعلم.
- كان ذلك في ما مضى.
- ومالذي تغير؟
- الذي تغير هو أني فكرت كثيرا لأكتشف أني لم أعد أريده، كل ما كان يربطني به كان مجرد إعجاب وقد زال الآن.

نظر إليها في استياء، شيء ما كان ينذره أن ابنته كانت تكذب، نظرات عينيها تستغيثانه، فما بال لسانها تعود على الكذب مؤخرا، تنهد في استسلام وقال:

- ولكن هذا غير صحيح، نظراتك إليه تقول أنك مازلت تحبينه، ولكنك تتهربين منه لأمر ما، أخبريني هل فعل شيئا أحزنك به؟
- هو لم يفعل شيئا يا أبي، ولكن الأمر كما أخبرتك.

ترددت قليلا قبل أن تضيف في حرج:

- أنا ... تعرفت على شاب آخر.

احـــتـــيـــاج

تلعثمت قليلا قبل أن تكمل:

- هو طلبني للزواج وأنا...
- وأنت ماذا!؟ هل وافقت؟!
- لا طبعا، أنا أنتظر موافقتك، بصراحة الشاب جيد جدا وموافقتي تأتي بعد موافقتك طبعا!.

شعر الحاج محمود بالتشتت، لم يكن يفهم شيئا، ابنته التي كانت تتورد وجنتاها وتلمع عيناها لمجرد ذكر قصي منذ بضعة أيام فقط، تقول الآن أنها لم تعد تحبه وتريد الزواج برجل آخر، بهذه السرعة وهذه الطريقة الغامضة؟، كان يعلم أن هناك خطرا ما في حياة ابنته، وهو لن يرتاح حتى يعرفه.

قال في حزم:

- الأمور ليست بهذه البساطة، منذ أيام قليلة فقط كنت تحبين خطيبك ولا ترين في الدنيا رجلا غيره، ماذا حدث لتأتي بعد أيام وتقولي أنك تعرفت على رجل آخر، الزواج ليس مسألة يمزح الناس فيها يا ابنتي!؟
- وهل أبدو لك كشخص يمزح؟!.
- ولكن....
- أبي أنت قلت أنك تثق في قراراتي لدرجة أن لا تناقشها بعدي أبدا، ماذا حدث الآن؟
- ولكن الأمر مختلف الآن، ألا تلاحظين خطورة ما تتكلمين عنه.

احـــتـــيـــاج

تنهدت في أسى وواصلت:

- أية خطورة في فسخ خطوبة؟!
- وعقد أخرى بعدها مباشرة!
- أعلم أن هذا غريب ولكن هذا ما حدث، تعرفت على شاب يدعى وائل كنت أعالج أمه، كان يأتي لاصطحابها وكنا نجلس لنتحدث عن وضعها، ومع مرور الوقت بدأت مشاعري معه تأخذ منحى آخر، ثم فوجئت به وهو يصارحني بمشاعره تجاهي وطلبني للزواج، وها أنا ذا أستشيرك.

صفق بيديه قائلا في تهكم:

- رائع!... والآن فقط تذكرت والدك لتخبريه!؟
- أبي لا تنس حالتك الصحية مؤخرا، لم أشأ أن أشغلك بأي شيء آخر.

تنهد في استسلام، ثم قال:

- وقصي؟ هل حدثته؟
- نعم.
- وماذا كان رده؟
- رفض فكرة الانفصال.
- وماذا كنت تتوقعين منه، خطيبته التي كانت تحبه أكثر من أي شيء، تأتي في ظرف أيام قليلة لتخبره أنها لم تعد تريده.
- الأمر بدأ منذ شهور، ولكن الأمور اتضحت منذ أيام فقط.

نظر إليها نظرة سمرتها، ثم قال:

- هل كنت تخرجين معه وأنت مخطوبة لشخص آخر؟.

احـــتـــيـــاج

نظرت إليه في لوم وقالت:

- ألا تثق في ابنتك أبي؟!
- طبعا أثق فيك ولكن الأمور اختلطت علي و..

قاطعته بنبرة لائمة:

- أنا لم أصارحه يوما بمشاعري ولم يحدث أن حدثته عن أمور خاصة، لهذا أردت أن أسألك أولا لتكون كل الأمور رسمية وواضحة.

قال في استسلام:

- اتصلي بقصي وأخبريه أني أريد أن ألتقي به هذا المساء.
- حسنا.

خرجت من غرفة والدها والذنب يعتصر قلبها، لم يسبق لها أن كذبت على عليه أبدا ولكنها سرعان ما واست نفسها بأنها كانت مضطرة.

فكرت في أمر قصي فلم تجد حلا إلا المصارحة والحقيقة، لأن استمرارها في كذبها عليه سيجعله يتحرى عن الأمر ليهد كل شيء فوق رأسها، أمسكت هاتفها واتصلت به:

- ألو...
- أخيرا... أخبريني هل قررت أن تقولي الحقيقة؟!
- سنلتقي في الحديقة، على الساعة الثالثة مساءً.
- حسنا.

احـــتـــيـــاج

كان ينتظرها جالسا على أحد الكراسي عندما أقبلت من بعيد، أشار إليها بيده لتوافيه وتجلس على الكرسي بجانبه، بادرها بقوله:

- أرجو أن تكون الحقيقة هي ما جاء بك.
- أنت لن تسمع شيئا اليوم إلا الحقيقة، ولكن عدني أن تتقبلها مهما كانت.
- .....
- عدني يا قصي.
- أعدك بهذا، بشرط أن تكون هذه الحقيقة مقنعة.

قررت أنه ليس هنالك داع للف والدوران لهذا قررت بأن تلقي بالحقيقة في وجهه دفعة واحدة، فقالت:

- سأتزوج ابن المرأة التي سددت مستحقات العملية وثمن القلب لوالدي.

انتفض في مكانه غير مصدق ثم قال:

- ولكن هل جننت؟ كيف تفعلين هذا دون أن تستشيري أحدا منا؟

قالت وهي تقوم من مكانها صارخة:

- من سأستشير ها؟ من سأستشير؟

والدي الذي كان طريح الفراش ويعد آخر ساعاته، أم أنت؟ هل كنت ستسمح لي إن استشرتك؟

- بالطبع لا؟
- هل كنت ستوفر كل ذلك المبلغ في ليلة واحدة؟

احـــتـــــيـــاج

قال مطئطئا رأسه:

- مستحيل!
- إذا؟! مالذي كان يتوجب علي أن أفعله، أسلم والدي للموت؟!

جاءت المرأة وعرضت علي أن أتزوج ابنها مقابل مساعدتها لي فلم أجد بدا من أن أوافق، أنا لا أملك في الدنيا من هو أعز من والدي، ولست مستعدة لأن أخسره تحت أي ظرف كان، ومن أجل أي شخص كان.

نظرت إليه تنتظر ردا على كلامها وعندما لم يقابلها إلا بالصمت واصلت:

- تكلم، قل شيئا! هل تركنا حلا دون أن نجربه، كنا عاجزين تماما ولم يكن هناك سوى هذا الحل.
- ولكن الأمر لم يتم إلى الآن، بالتأكيد هنالك حل.
- لقد أمضيت على وصل بمليون دولار، والإخلال بالاتفاق يعني السجن و...
- هل جننت؟ ما هذا الذي تقومين به؟ لماذا لم تخبريني من قبل أنا محام ولا بد أن أجد حلا.

ابتسمت في مرارة وواصلت:

- هل تعتقد بأني أخاف السجن؟، لا بد أنك لم تعرفني بعد.

أنا أخاف على والدي، وصول هذا الكلام له قد يعني نهايته، أنا مستعدة أن أحرق الدنيا ولا تتأذى شعرة من رأسه وأنت تعلم هذا.

- أعلم كل هذا ولكن لا بد...

احـــتـــيـــاج

قاطعته في تحد:

- كما بدأ كل شيء ههنا سينتهي هنا، ستنسى أنك عرفتني يوما، ستعيش حياتك بعيدا عني...

دون إرادة منها لانت نبرتها وقالت بصوت متلهف:

- عدني بأنك ستكون سعيدا، ستسعد في حياتك يا قصي، وستنساني.
- لا يمكنني أن أنساك، لا يمكنني أن أعيش من دونك، بعدك يعني موتي.

قاطعته بوضع أصابع مرتعشة على شفتيه، ثم أكملت:

- ستعيش، وستحب، وستبدأ من جديد، عدني بذلك أرجوك.

قبل أصابعها في شوق بالغ، وقال في حشرجة:

- لا أستطيع.
- بل ستقدر، قصي الذي أعرفه سيقدر، هذا هو قدرنا وسنواجهه، إن كنت تحبني حقا كما تقول فلن تخذلني أثق في ذلك.

سحبت أصابعها في لطف من بين يديه، ثم قالت في حزم مرة أخرى:

- من هو الحاج محمود بالنسبة لك؟
- إنه أبي، قبل أن يكون صهري.
- إذا أنت ملزم بمساعدته وحمايته مثلي.
- ومستعد لأن أهبه روحي أيضاً.
- إذا أريد منك خدمة صغيرة.

احـــتـــيـــاج

في المساء حضر قصي لزيارة الحاج محمود بناء على طلبه، بادره الحاج بابتسامته الودود قائلا:

- مرحبا بني.
- مرحبا عم محمود، كيف حالك اليوم؟
- أتحسن مع مرور الوقت.

جلس قصي وهو يفكر في كلام ياسمين التي كانت مصرة أن تحمله فوق طاقته وقدرة تحمله عندما طلبت منه إقناع والدها، ثم طلبها الغريب بأن يخبره بأنه سيتكفل بضمان ذلك العريس لأنه مسافر دائما ولن يستطيع الحضور إلى بيتهم كما ادعت، كانت حججها واهية وكان يدرك هذا جيدا ولكن لم يجد بدا من أن يرضخ لطلبها، لأنها كانت محقة نوعا ما، لم يكن لديها حل آخر ولو حشر في ذات الزاوية لكرر نفس الفعل دون أدنى تردد، ولكنه لن يتخلى عن الأمر وسيضل يبحث عن ثغرة ما تستطيع إخراجها من ورطتها ولن يهدأ له بال حتى يعثر عليها.

واصل الحاج محمود كلامه:

- أخبرني يا بني مالذي يحدث بينك وبينها؟، فأنا لم أحصل منها على جواب مقنع رغم كل محاولاتي.

أجابه محاولا أن يلجم مشاعره كي لا يشك في أمره:

- ياسمين تريد الانفصال يا عم، وأنا أحترم قراراتها.
- ولكن لماذا؟ مالذي حدث؟، لقد كنتما رائعين حتى أجل قريب.

احـــتـــيـــاج

- نعم كنا كذلك، ولكن الأمور لا تدوم على حال يا عم، هي اختارت طريقها ويبدو أنها مقتنعة به، وأنا لا يمكنني أن أفرض عليها نفسي.
- ولكنها تحبك أنا أشعر بهذا، حاول أن تكلمها، أن تقنعها، افعل أي شيء المهم أن لا تتركها تبتعد عنك.

واصل بعد أن شد على يده:

قصي، أنا رجل مسن والأزمة الأخيرة التي تعرضت لها جعلتني أفكر في أني مهما عشت فلن أعيش طويلا، لقد كبرت وبلغت من العمر عتيا والعمر الذي ولى لا يعود وأنا لن أجد شخصا أستأمنه عليها مثلك أنت، شخص يحبها ويراعيها ويحميها بكل ما أوتي من قوة.

تنهد في أسى، ورفع وجهه ليواجه العم محمود ثم قال بصوت منكسر:

- ياسمين كبرت يا عم، ولم تبق تلك الطفلة الصغيرة التي كانتها، هي الآن بالغة وواعية وتعرف تماما مالذي تفعله، وهي أيضا حرة ولا نستطيع لا أنا ولا أنت أن نتدخل في قراراتها.

طأطأ الحاج محمود رأسه في أسى، ثم تنهد وناداها...

احـــتـــيـــاج

دخلت الغرفة وهي تدعو الله أن يكون قد نجح في إقناع والدها، قالت وهي تجلس أمامه على السرير:

- تفضل أبي، أنا أسمعك.

تنهد الحاج محمود بشكل أعمق ثم قال:

- أما تزالين مصرة على قرارك الذي أطلعتني عليه البارحة؟
- أبي أنا لست طفلة صغيرة تغير قرارها كل حين.
- ورغم هذا سأسألك مرة أخرى: أمازلت عند قرارك؟
- طبعا، ومصرة عليه أيضا.
- إن كان هذا الرجل قد آذاك أو غصبك على شيء فقولي وأعدك...
- أبي ما هذا الذي تقوله، أنت تعرف ابنتك جيدا، هل هي من النوع الذي يهدد؟.

نظر الحاج محمود إلى قصي في رجاء عله يفعل شيئا، ولكنه لم يقابله إلا بالصمت فواصل كلامه:

- حسنا إذا، أخبريه بأني موافق على مقابلته.

نظرت ياسمين إلى قصي، فالتقت عيناها الحائرتان بعينيه المطمئنتين، ثم قالت:

- أبي في الحقيقة... وائل لا يستطيع مقابلتك.

احـــتـــــيـــاج

انتفض في مكانه غير مصدق ثم قال في غضب حاول كبته قدر المستطاع:

- ولماذا لا يستطيع مقابلتي؟، أم أنه لايريد؟ لماذا هل سيادته أكبر من أن يقابلنا أم ماذا؟

أمسكت بيديه محاولة تهدئته ولكنه سحبهما بعنف وواصل:

- إذا أخبريه أن ينسى أمر هذا الزواج برمته!.

قاطعته قائلة:

- اسمعني رجاءً، هو مسافر لهذا لن يستطيع مقابلتك، في الحقيقة هناك أمور يجب أن تعرفها عن وائل، هو يعمل خارج البلد وزياراته شحيحة جدا إلى هنا، وفي هذه الفترة وبسبب هذا الوباء المتفشي (كورونا) لن يستطيع التنقل إلى هنا، لهذا فكرت...

ثم نظرت إلى قصي تستغيثه بنظراتها، فواصل:

- ما تقوله صحيح يا عمي، الخطوط الجوية والبحرية وحتى البرية، كل الحدود مغلقة في وجه الداخلين إلى البلد والخارجين منه، لهذا إن كان خارج البلد فلن يستطيع الدخول إليه.

نظر إليه الحاج محمود في عدم تصديق قائلا:

- أنت؟ أنت تساندها يا قصي؟

تنهد في أسى ثم قال:

- ولكنها الحقيقة يا عم؟!، ثم إن رفضها الزواج بي لا يعني أبدا أن أتنكر لها ولا أدعمها عندما تحتاج ذلك، ربما أنت بسبب حالتك الصحية لا تعلم

احـــتـــيـــاج

بما يستجد في العالم الآن، ولكن الأمور باتت على هذه الحال، ولا ندري إلى أي مدى سيستمر هذا الوضع.

قال الحاج محمود في حيرة:

- كيف سيقدم للزواج بك أذا؟

قالت في خجل:

- هو قال أنه يستطيع أن يتدبر أمر الدخول لمرة واحدة فقط، وستكون عند زواجنا.

نظر الحاج محمود إلى قصي قائلا:

- هل تقبل أذناك هذا الهراء؟، ألا تسمع ما تقوله؟

ثم التفت إليها وواصل:

- أتريدينني أن أزوجك لرجل لم ألتقي به أبدا؟، رجل لن ألتقيه إلا يوم زواجك، هذا إن أتيحت لي الفرصة لذلك؟

نظرت إليه في توجس وقالت:

- أبي لا يمكننا أجراء زفاف بسبب الأوضاع، سيكون مجرد حفل بسيط فقط، مع عقد قران شرعي ومدني في الوقت نفسه، وستجد الوقت حتما للتعرف عليه.

رمقها بنظرات نارية ثم قال:

- ابنتي تريدني أن أزوجها لرجل لا أعرف عنه شيئا ولم ألتقه يوما، ودون زفاف؟، ماذا سأقول لأمك عندما أقف أمامها غدا؟ إذا سألتني عن أمانتها.

احـــتـــــيـــاج

قال قصي مطمئنا:

- إن سمحت لي يا عم، أنا سأتكفل بأمر السؤال عن هذا الرجل، لدي أصدقاء في لندن سأطلب منهم ذلك، ثم سأطلب منهم لقاءه والتحدث معه، حتما أنت تعرف عمي مؤنس، سأجعله يتكفل بالأمر.
- أنت بالذات يا قصي ستصيبني بالجنون، يا بني هذه خطيبتك، امرأتك تضيع من يديك بهذه البساطة، ثم ماذا تفعل أنت؟ تدعمها وتساعدها في ذلك!.

طأطأ رأسه وقال:

- هي اختارت طريقها يا عم، ولأنني أحبها سأساعدها قدر استطاعتي ولن أرتاح حتى أتكأد من أنها ستسعد في حياتها.

شعرت بغصة في قلبها وهي تسمع هذا الكلام ولكنها أخذت نفسا عميقا والتفتت إلى والدها تنتظر ردة فعله، فقال في عتب:

- حسنا، لأنني أثق فيك يا قصي سأقبل، وتذكر دائما أنها أمانة في عنقك، حتى وإن كانت على ذمة رجل غيرك.

نظرت إليه في لوم قائلة:

- أما عدت تثق بي؟

لم يجبها الحاج محمود بل سرح بباله بعيدا وكأنه يتذكر شيئا.

احـــتـــيـــاج

اتصلت ياسمين بهدى لتطلعها بما جد في القضية كما طلبت منها، ثم حاولت معها بشتى الطرق لكي تجعلها تؤجل أمر الزفاف قليلا لأن والدها يستحيل أن يزوجها بهذه السرعة، بعد جهد كبير بذلته استطاعت إقناعها في أن تمهلها ثلاثة أسابيع على الأكثر لتجد لنفسها حلا.

حاولت بكل الطرق، لوحدها تارة وبمساعدة قصي تارة أخرى حتى تمكنت من من إقناعه بعقد هذا القران في التاريخ الذي حددته هدى.

كانت ياسمين طوال هذه الأسابيع ضائعة تائهة تفكر طوال الوقت بذلك الزوج المجهول وذلك الزواج الغريب الذي ستقدم عليه، شاعرة بالخوف يتضاعف في قلبها مع كل دقة ساعة.

أما وائل فواصل حياته التائهة الضائعة، يجرب كل أنواع المخدرات، وكل أنواع المشروبات، لا يترك لنفسه المجال لأن يصحو لأنه حينها سيبدأ عقله بالتفكير وإحياء ذلك الماضي الذي يحاول بكل قوته وأده وطيه في غياهب النسيان.

احـــتـــيـــاج

في خضم هذه الأحداث جاء اليوم الموعود، اتصلت هدى بوائل لتذكره بذلك اليوم، لوى شفتيه في قرف وهو يفكر في طبيعة هذه المرأة التي قبلت أن تبيع نفسها مقابل مبلغ من المال، ثم قام من مكانه متجها إلى دراجته، ركبها واتجه إلى فيلا والدته.

مر الصباح كله في تجهيزات طلبتها هدى ورأت ياسمين أن لا فائدة منها ولا معنى لها، ولكنها رغم انزعاجها لم ترد بشيء غير ابتسامة باهتة تقابل بها الجميع.

كانت مستسلمة تماما لكل تلك التعديلات واللمسات التي كانت تجرى عليها، مخدرة تماما وغائبة عن الكل، فستان تلو فستان، خياطات وخبيرات مكياج، والكثير الكثير من الخدم الذين جعلوها تصاب بالغثيان، بعد ساعات أعلنت هدى عن رضاها عن شكل كنتها .

في الجهة الأخرى كان وائل يشعر وكأنه يختنق داخل طقمه، بدلة وربطة عنق سوداوان وقميص أبيض أبرز سمرته التي كانت مختفية خلف لحية وشعر مشعثين أصر الحلاق على إزالتهما، رغم إصرار وائل على العكس.

اقتصر حفل الزفاف على المقربين فقط، قلة قليلة من أهل ياسمين، وقلة أخرى من معارف مدام هدى، بعد فترة بدأت مراسم الزفاف، كان على وائل أن ينتظرها أسفل الدرج بينما تنزل هي من أعلى لتوافيه، ثم يمسك بيدها ويقودها إلى طاولة ضخمة في الحديقة حيث سيعقدان قرانهما.

احـــتـــيـــاج

وقف أسفل الدرج خافضا بصره متجنبا أي لقاء بينهما، لم يكن في مزاج جيد لأن أمه طلبت منه أن لا يتعاطى أي شيء يومها وأن يظل صاحيا على الأقل إلى أن ينتهي الزفاف فوافقها على ذلك، مما جعله كقنبلة جاهزة للانفجار تنتظر فقط من يذكيها.

وقفت ياسمين أعلى الدرج بفستانها الأبيض ذي الحزام الأسود، كان الفستان ينزلق على قوامها راسما لوحة جميلة لامرأة لا تملك عين رائيها إلا أن تعشقها، نظرت إلى أسفل إلى ذلك الرجل الفارع الطول النحيف الجسم ذي الملامح المصقولة، عينان لم تستطع أن تمييز لونهما لأنه كان يخفضهما إلى أسفل، أنف شامخ وشفتان دقيقتان وملامح سمراء لاتينية، كانت هذه الملامح ستمنح أي عروس الفخر بزوجها إلا هي، لا تدري لماذا توجست منه وشعرت بقلبها يكاد يخرج من مكانه من الخوف، نزلت الدرجات بهدوء ولم يفتها أنه لم يحاول رفع عينيه ولا لمرة واحدة، كانت ترجو الله أن لا يقدم على شيء يخرب هذا الزفاف، وكانت ترجو من كل قلبها أن لايلتقي بوالدها، لأنه على حسب مدام هدى لا يعلم شيئا.

شعر بها تقف أمامه فمد يده إليها دون أن يرفع بصره، شبكت ذراعها في ذراعه ومشت إلى جانبه تحت تصفيقات الحضور التي أربكتها وزادت من حدة توترها، مرت لحظات عقد القران وكأنها سنوات طويلة بالنسبة إلى كليهما، وبعد الانتهاء من المراسم أخذت بعض الهتافات الشاذة من هنا وهناك تسلك طريقها إلى أذني العروسين:

- لا بد من قبلة للترحيب بعروسك.

احـــتـــيـــاج

اقترب منها دون أن ينظر إليها فتمالكت نفسها كي لا تنهار وتظل واقفة، قرب شفتيه من أذنها حتى كاد يلامسها ثم قال:

- مرحبا بك في جحيمي.

ثم انسحب مبتعدا.

ظلت مشدوهة وهي تحاول التأكد من ما سمعته، كانت تشعر أن دقات قلبها تمتد لتسمع كل الحضور حولها، هي تعلم أنها مقدمة على جحيم ولكنها لم تتوقع أن تسمعها منه، بصوته الهازئ الواثق الذي هزها هزا، السخرية التي في صوته التي تمتزج بصرامة وجمود كبيرين أشعراها بالرعب حقا وجعلاها تتأكد من شيء واحد هو أن هذا الرجل قادر على تدميرها دون أن يرف له جفن، والأدهى منه أنه لا يملك شيئا ليخسره، فقد كانت هي الخاسرة الوحيدة في هذه الصفقة كما أسمتها مدام هدى.

انتشلها صوت والدها الهادئ الذي اكتسى بعض القلق في نبرته:

- ياسمين! أين ذهبت بتفكيرك يا ابنتي؟
- ها؟ أنا هنا معك أبي، أخبرني هل كل شيء على ما يرام؟.

اقترب منها يقبل جبينها في حنان قائلا:

- مبروك حبيبتي، بارك الله لكما وبارك عليكما وجمع بينكما في خير، تبدين رائعة الجمال اليوم.

احـــتـــيـــاج

ابتسمت في حنان وارتمت بين ذراعيه تغالب دموعها كي لا تفضحها، سألها:

- هل أنت بخير يا صغيرتي؟

طمأنته بحركة من رأسها، فواصل:

- أين هو زوجك؟، أريد أن أتحدث معه قليلا، بحثت عنه منذ قليل ولكن يبدو أنه انصرف ما إن انتهت المراسم، هل كل شيء على ما يرام؟
- كل شيء على ما يرام لا تقلق، ولكن بينما كنا في الداخل ورده اتصال طارئ اضطره إلى الانصراف، لا تقلق سأجعله يتصل بك ما إن يعود إلى البيت.
- إن شاء الله.

قالها محاولا تجاهل صوت عقله الذي يخبره بأن هناك خطبا ما في كل ما يحدث.

بدأ الناس بالانصراف وما هي إلا لحظات حتى كان المنزل شبه خال من الناس إلا من بعض الخدم ومدام هدى ووالدها مع مربيتها الخالة إنصاف، اتجهت لتودعهما قائلة:

- خالتي إنصاف والدي أمانة عندك.

نظرت إليها الخالة إنصاف في عتاب قائلة:

- مكانة الحاج عبد الرحمان على رأسي من فوق، أفضاله سابقة ومهما فعلت لن أستطيع رد جمائله المتكررة علي.

احـــتـــيـــاج

ابتسمت في رضى ولم تعقب ثم اتجهت ناحية أبيها وقبلت جبينه ثم قالت:

- سوف آتي لزيارتك كلما استطعت، وأنت عليك أن تعدني بأنك ستكون قويا من أجلي.

سكتت قليلا ثم أردفت بصوت مرتجف حاولت جعله يبدو عاديا ولكنه فضحها رغم ذلك:

- لا تنسني من دعائك يا أبي...

نظر إليها في استغراب ثم سحبها إلى حضنه قائلا في قلق واضح:

- هل كل شيء بخير يا ابنتي؟
- لا تقلق أنا بخير، ولكني لا أريد أن أفارقك.

ضمها إلى صدره أكثر وقال:

- هذه هي سنة الحياة يا ابنتي، ولكن لماذا تقولين هذا؟، هل هناك خطب ما؟ أم أنك تنوين أن تهجري هذا العجوز ولا تزوريه مرة ثانية؟

ضمته أكثر وهي تقول:

- أنت تعلم أني لا أستطيع...

هم بأن يرد ولكن هدى قاطعتهما قائلة:

- حسنا ياسمين أظن بأن والدك متعب وعليه أن يرتاح.

سحبت نفسها من بين ذراعيه مكرهة، كانت تود أن تحتمي به فلا تبتعد عنه أبدا، ولكنها كانت مضطرة للابتعاد، فقالت بعد أن استعادت رباطة جأشها:

احـــتـــيـــاج

- حسنا أبي أظن أنه قد حان الوقت لأن نقول: إلى اللقاء.
- أستودعك الله يا ابنتي.

ثم التفت إلى مدام هدى قائلا:

- ياسمين أمانة عندكم...

قاطعته قبل أن يكمل:

- لا تقلق مكانة ياسمين من مكانة وائل ابني.

اطمأن قليلا لهذا الكلام ثم انصرف تاركا إياها خلفه، ابنته التي كان يتمنى أن يموت ولا يراها تفارقه هكذا، لو كان القرار يرجع له لما زوجها أبدا، لما أبعدها عن حضنه أبدا، ولكنها سنة الحياة وهو لن يبقى بجانبها إلى الأبد وسيأتي يوم ويفارقها، وهو حتما يفضل أن يفارقها بعد أن تكون قد أسست عائلة على أن يتركها وحيدة.

بعد أن انصرف الحاج محمود مع إنصاف قالت مدام هدى في ترفع:

- اصعدي إلى فوق وغيري هذا الفستان وجهزي حقيبة ثيابك لتذهبي إلى شقة زوجك، في الحقيقة تمنيت لو يقيم هنا بجانبي ولكنه فضل شقة منفردة، الأمر يعود له على كل حال فلا يمكنني إجباره على أي شيء، ولكنني أطمع أن تقنعيه في القريب العاجل أن يعود إلى حضن أمه، على كل ليس هذا موضوعنا الآن، لدينا كل الوقت لمناقشته مستقبلا، أما الآن فستصعدين وتجهزين نفسك ليقلك السائق إلى شقتك.

احـــتـــيـــاج

كانت تستمع إليها صامتة وفي ذهنها ألف سؤال، كيف ستعيش لوحدها مع هذا الرجل في بيت واحد، إن كان صوته فقط جعل قلبها ينخلع من مكانه فكيف بأفعاله!

قطع حبل أفكارها صوت هدى الغاضب :

- عندما أحدثك يجب أن تتركي كل شيء وتصبي اهتمامك علي أنا فقط، هل فهمت؟
- نعم مدام هدى، أنا آسفة فقد سرحت قليلا بعقلي.

ابتسمت هدى قائلة:

- لا بد أنك تفكرين في عريسك! أخبريني هل أعجبك؟

ثم اتسعت ابتسامتها قائلة:

- لا تنسي أنا أعتمد عليك، أريد أن أحمل حفيدي بين يدي في أقرب وقت ممكن، وإلا...

نظرت إليها ياسمين مستفسرة فأكملت:

- سأدمرك وأدمر والدك هل فهمت؟

واصلت السيدة هدى بنبرة متسلطة:

- افعلي أي شيء لعين يمكنك فعله، ستجعلينه يتغير، ستدفعينه إلى الحياة، ستجعلينه يحب مرة ثانية وإلا فستندمين على اليوم الذي التقيتني فيه، والآن إذهبي إلى أعلى وجهزي نفسك لا أريد أن يعود ابني ولا يجد عروسه على سريره في أول ليلة لهما.

احـــتـــيـــاج

شعرت ياسمين بالغثيان ورغبة في أن تخرج كل ما في جوفها ولكنها تمالكت نفسها، وقالت:

- أتأمرين بشيء آخر مدام هدى؟
- لا، فقط تجهزي.

صعدت إلى الغرفة التي ارتدت فيها الفستان أول مرة فوجدت ثيابها قد وصلت موضوعة في حقائب تماما كما جهزتها في بيت والدها، كما وجدت عددا لا يحصى من الثياب التي كانت كلها على مقاسها معلقة في خزانة كبيرة جدا أمامها، جاءها صوت مدام هدى قائلا:

- انسي كل تلك الأسمال التي جئت بها واختاري أجمل الثياب من هذه الخزانة!

رضخت لكلامها متجاهلة استفزازاتها قدر استطاعتها، فتحت حقيبة كانت موضوعة على السرير بجانبها وأخذت تجمع فيها بعض الثياب، فتحت هدى بابا آخر أمامها يحتوى على ملابس رجالية من بدلات رسمية وبدلات رياضية وأقمصة وبناطيل من كل الماركات وكل الأنواع، قائلة:

- جهزي حقيبة أخرى لوائل، خذي له من كل ما يحتاج، وستجدين أيضا في الأدراج السفلية الأحذية وربطات العنق وبعض المستلزمات الأخرى خذي من كل شيء، لا أريد أن يحتاج ابني أي شيء، هل فهمت؟

أومأت برأسها في صمت وبعد أن جمعت كل شيء غيرت ثيابها، مرتدية فستان أسود من الدانتيل يصل إلى ركبتيها زاد بشرتها العاجية إشراقا وفتنة، نزلت إلى أسفل لتبلغ هدى بأنها أصبحت جاهزة، نظرت إليها هدى في إعجاب بالغ وقالت:

احـــتـــيـــاج

- بغض النظر عن الأسود في يوم زفافك، لا أظن أن وائل سيجعلني أنتظر كثيرا حتى يجعلني جدة.

اقشعر جسد ياسمين ولكنها لم تعقب، ارتدت حجابها وتبعت الخادم الذي كان يحمل الحقائب إلى السيارة التي كانت ستقلها بعد أن طلبت الإذن في الانصراف، ثم ركبت السيارة متجهة إلى ذلك الجحيم الذي سيبتلعها حتما.

لم يكن لديها أي فكرة عن الطريقة التي ستتعامل بها مع زوجها الجديد، تشعر بأنها لا تعرف شيئا وكأن الكلمات والأفكار اتفقت على خيانتها فلا تكاد تمسك منها بواحدة!، كل تلك النظريات التي أمضت عمرا تدرسها تشعر بها تتبخر كأن لم تعرفها أبدا، كان كل شيء يبدو لها بعيدا، كذبة لم تكن يوما حقا، حقيقة واحدة فقط كانت تتبدى أمامها هي أنها بعد لحظات لا تعلم مداها ستكون وجها لوجه مع ذلك الرجل الذي يرعبها مجرد حضوره أمامها.

وصلت إلى الشقة وبعد أن صرفت السائق بدأت تتفقد المكان، كانت الشقة بسيطة جدا مقارنة بالقصر الذي تسكنه مدام هدى، غرفة نوم وحيدة انقبض قلبها لمجرد التفكير بأنها ستتقاسمها مع ذلك الرجل البارد الكريه، كانت الغرفة متصلة بشرفة واسعة نوعا ما تطل على حديقة خضراء جميلة تنبعث منها رائحة الياسمين مختلطة بروائح زهور أخرى لم تميزها، كانت الحديقة قبلة للأطفال الصغار يلتفون حول زحليقة كبيرة تقبع في وسطها بجانب نافورة صخرية جميلة ومراجيح متنوعة هنا وهناك، انشرح قلبها لهذا المنظر وأحبته على الفور وقررت أنه سيكون حتما مهربها في قادم الأيام، كانت هناك غرفة أخرى للاستقبال ذات أثاث بسيط وعصري، أرائك بلون

احـــتـــيـــاج

القشدة وستائر خفيفة بنفس اللون، بهو يقود إلى مطبخ واسع نوعا ما، وحمام أخر غير الحمام المحاذي لغرفة النوم أصغر منه وأبسط.

كانت غرفة النوم تتصل أيضا بغرفة صغيرة للملابس، سحبت الحقائب إليها وبدأت بتوضيب الملابس في الخزانة وعقلها لا يتوقف عن التفكير؛ كيف ستتعامل معه؟ كان هذا السؤال لا ينفك يرن في رأسها دون توقف مما جعل التوتر يسيطر عليها، فقررت بعد أن انتهت من ترتيب الثياب أن تذهب إلى المطبخ لتعد لنفسها شيئا مهدئا ككوب من النعناع الدافئ، أو بعض الحليب بالفرقة.

جلست إلى الطاولة تحتسي كوب الحليب بالقرفة محاولة تقبل الوضع الجديد الذي فرض نفسه عليها فرضا، حاولت الاسترخاء بإجراء بعض التمارين التنفسية ولكن الانقباض كان يعود إليها من جديد ما إن يمر سؤال واحد ببالها: وماذا بعد!؟.

حل الليل بسرعة كبيرة لتجد نفسها تعد الدقائق متوجسة من هذا اللقاء الحتمي الذي لا مفرمنه، كانت تذرع الصالة ذهابا وإيابا في توتر بالغ، وبعد أن تخطت الساعة الحادية عشر شعرت بأن التعب قد تمكن من كل عضلة في جسدها فقررت أن تريحه وتريح أعصابها بحمام دافئ يساعدها على الاسترخاء، صعدت إلى غرفة النوم ومنها إلى الحمام المحاذي لها، استرخت داخل حوض الاستحمام وأخذت تمسد صدغيها في تعب واضح، منذ متى لم تنم؟! هي لم تعد تعد، ربما منذ اليوم الذي أطلقت فيه مدام هدى رصاصة العذاب عليها، ذلك اليوم الذي اصطبغ فيه مستقبلها الوردي بالسواد، لم تعد حياتها بعدها كما كانت أبدا حتى النوم جافاها وفارقها فكانت

احـــتـــيـــاج

لا تنام إلا دقائق قليلة تستيقظ على إثرها تتصبب عرقا، لا تدري متى بدأت هذه المشاعر بالتشتت والضياع تحيط بها، منذ متى كانت تسمح للخوف أن يقض حياتها!.

لقد كانت تظن أنها تخلصت من كل هذه المشاعر ورمتها جانبا عندما قررت أن تغير حياتها، درست علم النفس من أجل أن تتخلص من كل تلك الندب التي كانت تشوهها من الداخل، ظنت أنها تخلصت من شبح الطفولة، فما بال الخوف اليوم يسكن مسامها!.

هي لم تتعرف عليه بعد، جملة واحدة فقط ألقاها على مسامعها في غفلة منها جعلت الخوف منه يتعاظم في قلبها، لا تدري مالذي أخافها بالضبط؟!، حضوره وتلك الهالة الكبيرة من الغموض والقوة التي تحيطه، أم صوته البارد الميت الذي شعرت فيه بساديته!.

شعرت فيه بأن هذا الرجل مستعد لفعل أي شيء دون أن يرف له جفن، تستطيع أن تتوقع أي شيء من شاب عاش طفولة مثل طفولته، هي تعلم أكثر من أي شخص آخر بحكم طفولتها وبحكم تلك النظريات التي لطالما أفزعتها عن مصير هذا النوع من الأطفال، هي تعلم جيدا أنه إن خالط العنف والتجاهل نفسية الطفل الهشة فإنها حتما ستنتج ما لا يحمد عقباه، خاصة إذا غابت العناية نهائيا عن هذا الشخص، وأكثر شيء كانت تخافه هو ما كانت تشعر به يتلبس وائل تلبسا؛ السادية!

أنهت حمامها فشعرت ببعض اتزانها يعود إليها، بحثت عن ملابس نوم لائقة وسط الملابس التي أحضرتها معها فلم تجد، يبدو أن مدام هدى تحسب حسابا لكل شيء، قالتها ياسمين في سخرية ثم التقطت ثوبا أسودا يظهر

احـــتـــيـــاج

أكثر مما يخفيه، لبسته واتجهت إلى السرير، نظرت إلى الساعة فوجدتها تشير إلى منتصف الليل، لفت اللحاف حول نفسها وأغمضت عينيها وهي تتمنى من كل قلبها أن تنام قبل أن يحضر أو أن لا يحضر أبدا.

ولكن أمنياتها سرعان ما خابت عندما استشعرت حركة خفيفة عند باب الغرفة، ثم صوت مزلاج الباب وهو يفتح.

عاد إلى المنزل بعد أن هام على وجهه لساعات طويلة، كانت حالته رثة للغاية، ربطة عنق تخلص منها ما إن غادر الفيلا، قميص مفتوح كله تقريبا إلا من زرين في آخره، عينان غائرتان ورأس مشوش من كثرة التفكير، كان يريد أن يترك كل شيء خلفه ويولي هاربا ولكنه كان يمنع نفسه دائما ما إن تمر بباله صورتها، دخل إلى البيت ولم تكن أول زيارة له إليه، فقد جاءه في ساعة مبكرة من صباح هذا اليوم ووضع بعض العقاقير التي يحتاج إليها في درج الكومود التي بجانب السرير، توجه إلى غرفة النوم بهدوء وفتحها، رأى جسدها متكوما بين الأغطية فتجاهلها متجها إلى الحمام، أخذ حماما دافئا نفض عنه بعض تعبه ثم اتجه نحو الكومود وأخذ منها محقنا ولفافة تبغ متجها إلى الشرفة أين جلس مقابلا انعكاس ضوء القمر على نافورة الحديقة وهو يدخن مستنشقا عبير الياسمين ممتزجا برائحة التبغ الذي كان يدخنه.

بعد فترة قرر أنه عليه أن يدخل إلى الغرفة، توقع أن يجدها نائمة أو متكورة وسط الأغطية كما وجدها أول مرة ولكن ظنه خاب، كانت جالسة على جانب السرير تضم ركبتيها بيديها، مطأطئة رأسها وكأنها تفكر، كانت الغرفة مظلمة نوعا ما إلا من مصباح صغير لا يكاد يوضح أي شيء ولكنه

احـــتـــيـــاج

استطاع تمييزها، تجنب النظر أكثر إلى جسدها المغري، وقال بصوت أجش:

- ظننتك نائمة.
- .....

لم يكن ينتظر منها ردا ولم تكن في المقابل تمتلك ردا، كانت تدرك جيدا أنه لا بد من اللقاء والمواجهة وأن أي تأجيل لهذه المواجهة لن يزيد الأمور إلا سوءا، فمدام هدى لن تغفر لها بدون أدنى شك أي تهرب مهما كان مسوغه.

سحب الهواء بعمق كأنما أدرك سبب انتظارها وقال متحاشيا النظر إليها:

- إذا دعينا ننه هذا الأمر.

احـــتـــيـــاج

كان جالسا في شرفة الشقة يدخن سيجارته وعقله لا يتوقف عن التفكير يشعر بغضب غريب لا يعرف سببه، لقد خالفت توقعاته، كونها عذراء أمر لم يحسب له حسابا، كان يعتقد أنها عاهرة -ومازال يعتقد ذلك رغم كل شيء فامرأة تبيع جسدها من أجل المال لن تكون إلا عاهرة- ولكن "عاهرة عذراء" ابتسم في سخرية وهو يكرر الكلمة بين شفتيه، شيء لم يكن يتوقعه أبدا، ترى بماذا أغرتها مدام هدى لتوافق على بيع نفسها؟، امرأة بجمالها وفتنتها -كما أقر بعد نظرة خاطفة فقط- بإشارة واحدة من يدها سيركع عشرات الرجال عند قدميها، يبدو أن المال يجعل الناس عميانا حقا.

كان يتساءل لماذا لا يشعر هو بفتنة هذا المال، لماذا لا تهمه أموال الدنيا كلها، شيء واحد فقط تمناه هو طفولة طبيعية كأي طفل وحضن دافئ يفر إليه آخر النهار، ولكن القدر عانده في هذا فلم يذق في حياته كلها إلا الخيبات، أغمض عينيه في مرارة وهو يحاول تجنب التفكير في هذا المستقبل المظلم الذي يلوح له في الأفق عندما فكر في طفل صغير بريء يأتي إلى الدنيا بلا ذنب ليعيش هو الآخر طفولة كطفولته، ليصرخ داخله بكل عنف وقوة فلا يسمع صراخه أحد، ترى هل يستطيع أن يكون أبا له؟، هو الذي فشل أن يكون ابنا وأخا، وقبل كل هذا فشل أن يكون إنسانا!.

احـــتـــيـــاج

فتحت عينيها السماويتين في بطء وهي تتمنى أن تجد نفسها في غرفتها لتكتشف أنها أحد كوابيسها المزعجة مؤخرا، ولكن الحقيقة كانت تنتظرها لتبتسم إليها بتشف، منذ متى أنصف القدر شخصا نشأ وترعرع بين الخيبات؟ منذ متى حصلت هي على ما تتمناه؟.

لطالما كانت حياتها مليئة بالانكسارات، ولطالما كانت تقف بقوة في وجه هذه الانكسارات وتتحداها، لطالما تجاهلت خيباتها لتبدأ من جديد بقوة وعزيمة جديدتين لهذا لن تستسلم وستحاول وستقف من جديد.

لملمت شتات روحها وجسدها وقامت من السرير، انتبهت إلى أن الغرفة كانت هادئة ومكانه في السرير مرتبا مما يوحي بأنه لم يقض ليلته هنا، تنهدت بارتياح لهذه الفكرة ثم اتجهت إلى الحمام، جهزت حماما دافئا وألقت بنفسها في حوض الاستحمام تحاول نفض ذكريات تلك الليلة عنها، أغمضت عينيها في يأس وهي تتذكر ملامحه الجامدة وكلماته الميتة وهو يقول:

- دعينا ننه هذا الأمر.

انتفضت في رعب وهو يقترب منها قاطعا المسافة بينهما في خطوة واحدة، شعرت بكل عضلة في جسدها تنتفض، ولكنها لم تتجرأ وتأت بحركة واحدة، كانت مستسلمة تماما لهذا الخوف الذي كان يستبد بها، شعرت بالعرق يسري باردا على عمودها الفقري واجتاحتها رعشة عنيفة لم تقدر على السيطرة عليها، كان أشبه بجندي يؤدي واجبا عسكريا، جامدا ذا ملامح ميتة وكأنه عاد من الآخرة، لم تشعر معه إلا بالألم والخوف والرعب، هذا الرجل البارد الكريه قادر على أن يجعلها ترتجف بمجرد ملامسة أنفاسه لها، فكيف

احـــتـــــيـــاج

بجسدها كله، فركت جسدها بقوة لعلها تتخلص من آثاره التي كانت تشعر بها قد تغلغلت في مسامها وهي تتنهد في عجز محاولة تجاهل تلك الذكريات.

أنهت حمامها ودخلت إلى غرفة الملابس، ارتدت فستانا زهريا من الشيفون زاد من توهج بشرتها ولمعانها، ثم اتجهت إلى غرفة النوم بعد أن سمعت رنة جوالها، كان المتصل هو مدام هدى فردت بصوت خافت:

- ألو..
- كيف حال عروسنا اليوم.
- بخير.
- هل كل شيء على ما يرام.
- نعم.

هتفت هدى في عنف:

- تكلمي بوضوح، لست في مزاج لاستنطاقك، أريد أن أعرف كل شيء.
- لقد حدث ما تريدينه مدام هدى.

ابتسمت هدى في ظفر قائلة:

- ليس ما أريده أنا، بل ما تريدينه أنت أيضا، شئت أم أبيت ستريدين أن يحدث هذا الأمر، وحتى إن نفر وائل منك ستتقربين منه؛ استعملي أنوثتك وجمالك وعقلك وكل ما تملكين لتجعليه كل ليلة ينام في حضنك، وإلا فسأصير حياتك جحيما.

احـــتـــيـــاج

انتفض جسدها رغما عنها عندما مرت ذكريات الليلة السابقة أمام عينيها ثم تنهدت في صبر ولم تعقب، فواصلت هدى:

- أين هو الآن؟
- لا أدري، لم يكن موجودا في الصباح عندما استيقظت.
- حسنا الآن ستذهبين إلى المطبخ وتعدين الفطور، وستزاولين مهامك كسيدة بيت وفية ومطيعة.

قالت في إصرار:

- ماذا عن عملي؟.

قهقهت هدى وقالت بصوت استشعرت فيه ياسمين نبرة وعيد:

- إن ذكرت ذلك العمل على لسانك مرة أخرى فسأقفل لك تلك العيادة اللعينة وأنت تعلمين أني أنفذ ما أقوله.

تنهدت في استسلام قائلة:

- حسنا هل تأمرين بشيء آخر؟

ردت هدى في ارتياح:

- هكذا أحب أن تكوني دائما هادئة ومطيعة.

ثم أغلقت الخط دون مقدمات، ألقت ياسمين بالهاتف على السرير في قرف، ثم اتجهت إلى المطبخ وعقلها لا يتوقف عن التفكير.

جهزت إفطارا من شاي وقهوة مع بيض مقلي و بعض الفطائر التي أعدتها في المقلاة، والتي كانت تحبها جدا عندما كانت أمها تصنعها في طفولتها.

احـــتـــيـــاج

جلست إلى الطاولة لتتناول إفطارها ولكنها لم تستطع أن تتناول شيئا فصبت لنفسها بعض القهوة وأخذت تحتسيها في صمت.

مرت ساعات الصباح الأولى رتيبة لا تطاق، أعادت ترتيب الشقة ونظفتها ثم أعدت وجبة الغداء التي لم يتناولها أحد، امتد هذا الهدوء الرتيب إلى المساء ولم يتخلله إلا اتصال والدها الذي زادها قلقا خاصة أنه يصر على لقاء زوجها، حاولت تأجيل هذا اللقاء قدر استطاعتها متحججة بأعماله الكثيرة، ثم أعدت العشاء وتركته على الطاولة وجلست في الصالة تنتظره وهي تسترجع كلام هدى لها في الصباح، وتفكر في يأس.

وائل يهرب من هذا الوضع الذي وجد نفسه يعيشه، هو أيضا يرفض هذا ولكنه مجبر مثلها عليه، لا تدري مالذي فعلته أمه بالضبط لتضغط عليه ولكنه يبدو راضخا مستسلما لهذا المستقبل الأسود الذي سيبتلعهما معا على ما يبدو.

عندما ألقى على مسامعها تلك العبارة في يوم عرسهما ظنت أنه سيبدأ بتحويل حياتها إلى جحيم ما إن تطأ قدماها بيته، ولكنه لم يكلمها ولا كلمة واحدة عدا جملته اليتيمة تلك، ترى مالذي تهيئه لها أيامها معه.

عادت ذكرياتها بها راغمة إلى الليلة السابقة، كان يبدو أنه أي شيء حينها إلا إنسانا من لحم ودم ولو لم تكن أنفاسه تتردد لشكت في وجود روح تنتفض داخل ضلوعه، كان باردا جامدا وكأنه قد من صخر، وهي تشك أصلا في أنه قد شعر بوجودها كامرأة أمامه حتى، شعرت وهي بين يديه أنها لاشيء، حتى أنوثتها الطاغية لم تستنفر حواسه لينظر إليها ولو نظرة واحدة.

احـــتـــيـــاج

تنهدت في عجز وهي تتذكر قصي، كان كتلة من المشاعر المتقدة، دافئا جدا كما استشعرته ذلك الصباح عندما استسلمت لحضنه، ترى مالذي يفعله الآن؟ هل يفكر فيها كما تفكر فيه؟

نفضت من رأسها هذه الأفكار وهي تستغفر الله لأنها تفكر في رجل آخر، هي الآن رغم كل شيء متزوجة وعليها أن تحترم زوجها مهما كانت طبيعته.

قررت أنها لن تستطيع انتظاره أكثر عندما بلغت الساعة الثانية صباحا، خاصة وأن كل عضلة فيها كانت تصرخ طلبا للراحة، حملت نفسها إلى الغرفة وألقت بنفسها على السرير ولم تمض ثوان حتى راحت في سبات عميق، ولم تشعر به وهو يدخل الغرفة ويأخذ حمامه ثم بعض اللفائف من الكومود ويعود إلى الصالة.

جلس على الأريكة في تعب ولف الحبل على ذراعه قبل أن يحقنه بحقنة هيروين، ثم تناول لفافة تبغ وأخذ يدخنها في شرود، قرر أنه لن يشاركها الغرفة فاكتفى بأن اتخذ الأريكة فراشا له، تمدد بطولة الفارع عليها ولف إحدى قدميه بالأخرى وأخذ يحدق إلى السقف وعلى وجهه ملامح مبهمة، ظل هكذا لفترة وجيزة ثم استسلم للنوم.

استيقظت ياسمين صباحا كعادتها وعندما توجهت إلى الصالة لتجلس على إحدى الأرائك وجدته نائما هناك على الأريكة التي تتوسط الصالة، نظرت إليه بإمعان وفتشت على مشاعر الكره داخلها ولكنها لم تجد إلا الشفقة، كانت تشفق عليه فقط، لا تدري لماذا خيل إليها أنها ترى مكانه ذلك الطفل الصغير المهمش ذي النظرات الخائفة الحائرة، هو لم يختر مستقبله وربما

احـــتـــيـــاج

لو منحت له الفرصة ليختار لاختار مستقبلا أكثر إشراقا، ربما لو كان شخص آخر في مكانها لكرهه ولكنها لم تكن لتفعل؛ طفولتها التي تشبه طفولته ومعرفتها بما قد ينتج عن هذا النوع من التشتت الأسري كانا يشفعان له عندها ويغلفان كل مشاعرها نحوه بغلاف من الشفقة.

تنهدت بخفوت ثم اتجهت إلى المطبخ، وضعت إبريق الشاي على النار ثم استخرجت معدات الحلوى وقد قررت أن تصنع بعض البسكويت الذي كانت تصنعه أمها عندما كانت طفلة صغيرة، لعل بعض ذكريات طفولتها البعيدة تحمل إليها دفئا يخلصها من برد أيامها.

انهمكت في تحضير الحلوى وبعض السعادة تتخلل روحها لتأخذ بها إلى تلك اللحظات المسروقة من طفولتها.

فتح عينيه في ضيق إثر فوضى خفيفة قادمة من المطبخ الذي لا يبعد سوى خطوات قليلة من الصالة التي كان ينام فيها، داعبت أنفه رائحة زكية، رائحة سحبته دون وعي منه إلى طفولته، رأى نفسه وهو يركض إلى المطبخ في الصباح الباكر لتستقبله مربيته نفيسة وتحمله بيديها عاليا، فيسألها هو في براءة:

- ماذا حضرت اليوم؟
- امم شيء تحبه كثيرا.
- يسس .. كعك بالشكلاطة.

احـــتـــيـــاج

ثم رأى نفيسة وهي تطعمه حبة من هذا الكعك قائلة:

- اجلس على الطاولة وسأعطيك فطورك.

وجدت ابتسامة حالمة الطريق إلى وجهه رغما عنه وهو يتذكر هذه الذكريات، كانت طفولته رغم ما تخللها من فترات صعبة حلما جميلا مقارنة بالجحيم الذي يغرق فيه الآن.

اتجه إلى غرفته، بعد أن ألقى نظرة خاطفة على المطبخ، ليرى ياسمين منهمكة في صنع بعض الحلويات.

أخذ بعض الثياب ثم اتجه بعدها إلى الحمام ليستحم، غير ثيابه وخرج من البيت وهو يتحاشى أي شيء قد يسحبه إلى ذكريات قضى عمرا وهو يحاول قتلها داخله.

احـــتـــيـــاج

مضى هذا اليوم كسابقه، لم يحضر وائل إلى البيت منذ أن غادره في الصباح، لن تنكر بأنها ترتاح بعض الشيء لغيابه هذا، فحضوره رغم مشاعرها المتناقضة تجاهه يوترها حقا، امتد غيابه لأسبوع حاولت فيه شغل نفسها بأي شيء محاولة تجاهل خوفها الذي يتنامى داخلها خاصة مع إصرار والدها على رؤية زوجها والتعرف عليه، وكذا اتصالات مدام هدى المتواصلة والمستفسرة عنه والتي أرقتها حقا حتى أنها ندمت لأنها أخبرتها بغيابه.

كانت هدى تلومها على غيابه وكأنها هي المسؤولة على ما حل به، يبدو أنها تحاول التخلص من ذنبها القديم بدفعه إلى أي أحد آخر، وكانت هي الشماعة التي اختارتها لتعلق عليها هذا الذنب.

بعد أن تعبت من الانتظار في الصالة كعادتها اتجهت إلى غرفتها واستلقت على السرير في شرود وهي تفكر في هذا المستقبل الأسود القاتم الذي ينتظرها، ظلت لساعات شاردة إلى أن رحمها النوم.

بعد فترة دخل إلى الغرفة وأخذ بعض تلك العقاقير من درج الكومود واتجه إلى الشرفة في شرود وهو يدخن سيجارته ويفكر في كلام أمه التي اتصلت به لتعاتبه على غيابه عن بيته مذكرة إياه بمرضها وحلمها في أن يمنحها حفيدا قبل أن يسرقها الموت من هذه الدنيا، تنهد في عجز ثم اتجه إلى الصالة ملقيا جسده بإهمال على الأريكة والأفكار تتقاذفه إلى أن غرق في النوم.

احـــتـــيـــاج

استيقظت كعادتها واتجهت إلى المطبخ، ولكنها قبل ذلك ألقت نظرة عفوية -بحكم عادتها طوال الأسبوع- على الصالة لتبحث عيناها عنه، فتفاجأت به هناك على الأريكة ينتفض في مكانه كطير مذبوح بنصل صدئ، راعها هذا المنظر فاقتربت منه تناديه بصوت أبح قائلة:

- وائل هل أنت بخير؟.

ثم أردفت في توتر وهي ترى ارتجافاته هذه تزداد لدرجة أن جسده كان يرتفع إلى أعلى لينزل مرة أخرى في عنف، هزته بلطف قائلة:

- وائل استيقظ، أنت بخير، كل شيء بخير لا تقلق!

ازدادت ارتجافة جسده ما دعاها لاحتضان وجهه بين يديها وهي تضرب عليه برفق قائلة:

- وائل أنت بخير، افتح عينيك استيقظ، أنا هنا بجانبك لا تقلق.

لم يتوقف جسده عن الانتفاض بل ازداد، كان وجهه وسائر جسده ينضح بالعرق، فقوت من ضرباتها على وجهه وارتفع صوتها قائلة:

- وائل أنا هنا معك لا تقلق، كل شيء بخير، هل تسمعني؟! أنت بخير كل شيء بخير، استيقظ، افتح عينيك.

كررت عليه الكلام أكثر من مرة، ولكن انتفاضات جسده ازدادت حتى كاد يسقط أرضا، فاضطرت إلى إلقاء جسدها فوق جسده لتمنع انتفضاته هذه وهي تمسك وجهه بكلتا يديها قائلة:

- وائل أنت معي، أنت بخير لا تقلق، ستكون بخير، افتح عينيك، استيقظ!

احـــتـــيـــاج

أما هو فقد كان غارقا في نفس الكابوس الذي لم يتركه ليلة واحدة منذ وفاة عمر، كان يراه كل مرة وهو يذبح أمام عينيه وينتفض حتى آخر قطرة من دمه وعيناه الزمرديتان تتلونان بلون الدم وهو يهتف وسط ارتجافه:

- وائل أنقذني..

فيمد يديه لينقذه ليكتشف بأنهما ملطختان بالدماء، ثم تبدأ تلك الدماء بالصعود لتحيط بجسده كله، كل هذا وهو يرى الحياة تتسرب من عمر دون أن يستطيع فعل شيء وكأن جسده قد كبل بآلاف السلاسل اللامرئية، لم يكن يستطيع فعل شيء ولا حتى الإشاحة بوجهه والهروب من نظراته التي كانت تذبحه، ولكن شيئا ما تغير في حلمه هذه المرة؛ السماء التي لطالما كانت حمراء بلون الدم انقشعت فجأة لتغلفها زرقة صافية، وصوت هادئ حنون يهتف به من كل اتجاه دون أن يحدد مصدره، صوت أراد بكل ما أوتي من قوة التشبث به والاحتماء إليه، كان الصوت يناديه في حنان غريب قائلا:

- وائل أنا معك، لا تقلق، ستكون بخير أنا معك.

أراد أن يصرخ بأنه ليس بخير ولن يكون بخير، كان يريد أن يكون هو مكان عمر، أراد أن يذبح هو بذلك النصل حتى يرتاح، ولكن هذا الصوت كان يغريه بالدفء والحنان، بل كان يعده بـــ...بالحماية!!

كان الصوت يكرر في حنان:

- وائل، افتح عينيك، استيقظ، أنا هنا معك، سيكون كل شيء بخير!

أغراه الصوت فحاول لأول مرة منذ أن بدأته هذه الكوابيس أن يتمرد على استسلامه المقيت لها والخروج منها، أغمض عينيه بشدة مستدعيا كل قوته

احـــتـــيـــاج

ليفتحها مرة أخرى بقوة أكبر ليلاقيه بدل الأسود لون أزرق لازوردي فاتن، شعر بجسده الذي كان يحترق ينطفئ فجأة في بحار من المياه الزرقاء التي تمنى أن لا يخرج منها أبدا، لا يدري كم أمضى وهو مبهور بهذا المنظر الفاتن، حتى انتشله صوتها ليرمي به في أرض الوعي قائلة بذات النبرة الحنون:

- وائل أنت هنا معي لا تقلق، ستكون بخير.

قالتها وهي تمسح بيديها على وجهه في حنان هي نفسها استغربت كيف اجتاحها، بقي مذهولا تحت جسدها للحظات، ثم تحركت من فوقه لتستوي جالسة أمامه قائلة:

- هل أنت بخير؟

شعر بوعيه يعود إليه فجأة فأشاح بوجهه عن وجهها الذي يراه بوضوح لأول مرة، متجاهلا عينيها اللتين أحس بهما تطفئان نارا اشتعلت لسنين داخله، ومتجاهلا بحة صوتها ونبرة الحنان التي تكسوها والتي شعر وكأنها تعده بالأمان!

الأمان!، وهل مثله يستحق الأمان!، أغمض عينيه في وهن وشعر بالخجل لضعفه هكذا أمامها، هو الذي اعتاد أن يتخطى كل هذا وحده منذ أن كان طفلا.

لطالما رافقته الكوابيس منذ صغره، وكان دائما يتغلب عليها وحده، لم يشعر يوما بالحاجة إلى أحد!

احـــتـــــيـــاج

لماذا يكذب على نفسه الآن! لطالما شعر بحاجة إلى الأمان، إلى حنان العائلة، إلى حضن الأم، ولكنه لم يحصل على أي منها، لم يحصل إلا على الخوف وهو ينام كل ليلة ويستيقظ على دموعها، لم يحصل إلا على الشعور بالذنب وهو يرى سعادتها بعمر وتعاستها به، لطالما تمنى لو يختفي من أمام نظراتها التي كان يشعر بها تلومه على كل ما حصل لها، كان يشعر بنظراتها تذبحه دون أن تخبره عن ذنبه، وكأن له يدا في كل ما عاشته، تلك النظرة الباردة التي اختلطت في كوابيسه بنظرة عمر الخائفة التي لم تفارقه حتى وهو جثة هامدة.

قاطعت أفكاره بصوتها الدافئ وهي تمد كأس الماء أمام وجهه:

- تفضل اشرب هذا.

رمقها بنظرات غاضبة وهو يقوم مبتعدا إلى غرفة النوم، ليصلها صوت باب الحمام وهو يغلق بعنف، أغمضت عينيها في يأس وهي تتذكر حالته هذه، ترى ما الذي كان يراه لينتفض بهذه الطريقة، يبدو أن حالة هذا الرجل أسوأ بكثير مما توقعته!

وقف تحت المياه الباردة وهو يغمض عينيه بشدة لتلوح أمامه زرقة عينيها الفاتنة، تنهد بعمق وهو يشد قبضته، كيف ظهر بهذا المنظر المهزوز أمامها! بل كيف تجرأت على الاقتراب منه واقتحام كوابيسه!

أنهى حمامه وغير ملابسه بانفعال ثم اتجه خارجاً، راقبته وهو يخرج محاولة سبر أغواره، تريد أن تلتقط أي شيء، حركة، انفعال، غضب... أي

احـــتـــيـــاج

شيء يمكنها من خلاله فهمه لعلها تستطيع مساعدته، ولربما يجعل هذا هدى تحررها من هذا السجن الذي زجت بها فيه.

تنهدت في استسلام واتجهت إلى المطبخ لتباشر أعمالها اليومية كعادتها، مر اليوم رتيبا كئيبا كسائر أيامها منذ دخلت هذه الشقة، هي التي كانت كالنحلة لا تتوقف عن الحركة أبدا؛ بين عيادتها والمراكز الطبية التي تعمل فيها كمتطوعة وبعض المشاريع الخيرية التي ساهمت فيها، هي التي لم تكن تعرف الهدوء أبدا وجدت نفسها محبوسة بين الجدران، وحيدة خائرة القوى، ضعيفة الإرادة، تشعر بنفسها تذبل من الداخل شيئا فشيئا حتى تكاد تنطفئ.

مر اليوم وتلاه يوم آخر وآخر وهو غائب عن المنزل كعادته هائم على وجهه لا تعرف له وجهة أبدا، أما هي فلم تكن لها حيلة إلا مراقبة الزمن وهو يمر، لم تعد الساعات والدقائق تعني لها شيئا، هي التي لطالما قدست الوقت تجده اليوم فارغا تافها بلا معنى وكأنها غير معنية به مستسلمة لروتين يومي يقتلها من الداخل، أنهت وجبة الغداء لذلك اليوم الذي ليست تعلم ماهو، المهم أنه يوم شبيه بسائر الأيام التي مضت من صباحه حتى مسائه، ثم اتجهت إلى الصالة وجلست على إحدى الأرائك تتقاذفها الأفكار يمينا وشمالا.

شعرت بالباب يفتح فوقفت لتجد مدام هدى داخلة، لم تستغرب امتلاكها لمفتاح الشقة رغم معرفتها بأنها ملك خاص لوائل، المرأة التي تملك مستقبلها ومستقبل ابنها حتما ستمتلك مفتاحا كان الأجدر أن يكون خاصا بهما فقط.

احـــتـــيـــاج

ابتسمت ابتسامة متعالية وهي تدخل من الباب فلاقتها ياسمين بابتسامة شاحبة سرعان ما اختفت كما ظهرت، قالت بترفع:

- أين هو زوجك؟

خفضت ياسمين نظرها، ثم قالت بخفوت:

- لم أره منذ أسبوع.
- ماذا؟ ولماذا لم تتصلي بي حتى الآن؟! هل كنت تنتظرين أن أسمعها من الجيران أم تريدين أن أترك رجلا من رجالي يراقب شقتكما ليلا ونهارا.

نظرت إليها في حدة ثم اقترب منها أكثر وسحبتها من ياقة قميصها لتردف قائلة:

- أنت هنا عيني وأذني وكل شيء قبل أن تكوني زوجة ابني هل تفهمين؟!

أومأت ياسمين برأسها في خوف، متجنبة أية كلمة قد تزيد من اشتعال غضبها أكثر.

واصلت هدى في وعيد:

- من الآن فصاعدا سأعرف كل صغيرة وكبيرة في هذه الشقة اللعينة، حتى أنفاسه ستعدينها عدا وتخبرينني بها.

تنهدت في استسلام قائلة:

- حاضر مدام هدى، أنا آسفة لن يحدث هذا مجددا.

لاحت على شفتي مدام هدى ابتسامة نصر قائلة:

- إن حدث مرة أخرى فلن تلومي إلا نفسك.

احـــتـــيـــاج

اكتفت ياسمين بإيماءة صغيرة من رأسها لتسأل محاولة تغيير الموضوع وتلطيف الجو قليلا:

- هل تريدين أن تشربي شيئا.
- شاي بدون سكر.

اتجهت إلى المطبخ لتعد بعض الشاي وقلبها يخفق بشدة، عينا هذه المرأة تخبرانها أنها قادرة على فعل أي شيء دون أن يرف لها جفن لهذا كان واجبا عليها أن تحذرها وتتقي شرها.

كانت هدى جالسة في الصالة وهي تفكر في حال ابنها الذي لم يتغير، أيعقل أن امرأة كاملة الأنوثة كهذه لم تستفز رجولته، أيعقل أن كل هذا الجمال لم يدغدغ مشاعره، تنهدت في عجز وهي تراقبها بعينيها وهي تتجه إليها حاملة صينية الشاي، انحنت أمامها فأخذت كأس الشاي ثم شكرتها بشكل مقتضب قبل أن تدعوها للجلوس، جلست في توتر فقالت هدى:

- ألم أطلب منك أن تستبقيه بأي طريقة! .

تنهدت في عجز وهي تدرك الآن أن إرضاء هذه المرأة أصعب بكثير مما توقعت، ثم قالت في صوت خفيض:

- ابنك لم ينظر في وجهي حتى!

تخيلي حتى في أشد لحظاتنا حميمية لم يرفع عينيه إلى وجهي، وكأنني قطعة من حجر!

احـــتـــيـــاج

تنهدت هدى في مرارة حاولت اخفاءها ولكنها لم تقدر، ثم قالت:

- لا تقلقي سينظر، لن يستطيع مقاومة جمالك هذا كثيرا، سيقع في تأثيره طال الزمن أم قصر، فهو في الأخير رجل.

قالتها مشددة على آخر كلمة، فلاحت على شفتي ياسمين ابتسامة هازئة لإدراكها عقم الحديث مع امرأة متشبثة بأفكارها كهذه، فنظرت إليها هدى طويلا ثم قالت في حدة:

- لماذا لا تضعين مساحيق على وجهك؟! ثم ما هذه الملابس التي ترتدينها، أتطمعين أنه سيعجب بك وأنت في هذه الحال؟!

صمتت قليلا ثم أردفت في حدة أكبر:

- هذه آخر مرة أراك بهذه الحال، لقد ملأت خزانتك بالملابس المثيرة، واشتريت لك أحدث ماركات مستحضرات التجميل لتلاقيني بهذه الهيئة، ثم تزعمين بأنه نفر منك؟!

قالتها وهي تدفع بها إلى غرفتها لتفتح الخزانة بعنف وتنتقي لها ثيابا جريئة، فستانا احمر صارخا لا يكاد يغطي نصف ساقيها وحذاء أسود ذا كعب عال، ثم دفعتها نحو طاولة التزيين قائلة:

- ستجعلينه يسحر بك ولن تتوقفي حتى ينام كل ليلة بين ذراعيك، أظنه خطئي من البداية لأنني غبت كل هذه الفترة عنك ولكنني لن أفعلها مرة أخرى، ستجدينني دائما عندك، وإياك أن أرى المنظر الذي رأيته اليوم مرة أخرى.

احـــتـــيـــاج

كانت ياسمين تريد صفعها، ضربها، خنقها، وإلقاء كل شيء وراء ظهرها ولكن هذه رفاهية لم تكن لتطالها أبدا، لهذا قالت بصوت مبحوح:

- حسنا مدام هدى، هل تأمرين بشيء آخر.

تنهدت هدى في ارتياح، ثم غادرت الغرفة ثم الشقة بأكملها.

جلست ياسمين على السرير وهي تضم ركبتيها لصدرها، تفكر وبصرها مزروع في الفستان الأحمر الملقى أمامها، ابتسمت في مرارة قائلة:

- هل هذا هو قدري، أن أصبح عاهرة رخيصة ترضي غرور امرأة متعجرفة، ورجل مريض تائه أشبه بميت على قيد الحياة.

انسابت الدموع على مقلتيها بقوة فلم تحاول منعها كعادتها عندما يهزمها ضعفها، لأن هذه المرة كانت مختلفة، هي تشعر بنفسها عاجزة هذه المرة، غير قادرة على الوقوف وانتشال نفسها من هذه الورطة التي وقعت فيها!

إن كانت مدام هدى تريد عاهرة ترضي جسد ابنها أكثر من امرأة تحتوي ضعفه لماذا اختارتها هي إذن!؟ لماذا لم تختر أي عاهرة أخرى يرضيها أن تتزين وتتمايل أمام ابنها.

أخذتها أفكارها للحظة إليه ترى ما ذنبه هو الآخر؟ هو الذي اصطلى بنيران هذه المرأة قبل أن تمتد إليها، شعرت بالشفقة تجاهه وهي تتذكر أناته وانتفاضاته تحت جسدها ذلك الصباح، نظراته العاجزة عندما فتح عينيه كانت تستجديها الأمان، نعم كانت تنتزع منها وعودا بالأمان، وهل مثلها يستطيع أن يمنح الأمان؟!

احـــتـــيـــاج

هي لم تره من يومها، منذ ذلك الصباح الذي استشعرت فيه هشاشته وعجزه، بل وكادت تلمس ضعفه بكفيها، اختفت من ذهنها صورة الرجل الكريه القوي البارد التي رسمتها له، لتحل محلها صورة طفل صغير خائف عاجز يستجديها الأمان، لترى نفسها وضعفها في عينيه مرة أخرى.

قامت من مكانها ومسحت عينيها بقوة وهي مصممة على أن تنتشله وقبله نفسها من ذلك الظلام.

حملت الفستان الذي أعطته لها مدام هدى وألقته بقوة على الأرض ثم اتجهت إلى غرفة تبديل الملابس، اختارت فستانا أسود من الساتان طويلا ذا فتحة أمامية تصل إلى ركبتها وحذاءً أبيض مفتوحا، ثم اتجهت إلى طاولة الزينة فوضعت بعض المساحيق على وجهها، نظرت إلى نفسها في رضا وهي تهمس "كوني كما تريدين أنت لا كما يريد غيرك"، ثم اتجهت إلى الصالة وهي متأكدة من أنه سيأتي الليلة، هذه العجوز الشريرة تستطيع أن تأتي به متى أرادت.

جلست تنتظره لساعات في الصالة، مر المساء وحل الليل وهي تنتظر، شعرت بجسدها كله يتصلب ولكنها تجاهلت نداءاته، لم تستطع مقاومة نعاسها فغفت على الأريكة بعد أن جاوزت الساعة منتصف الليل.

دخل إلى الشقة ثم اتجه إلى الأريكة ليلقي نفسه عليها بإهمال ولكنه فوجئ بها متكومة عليها، نظر إليها في غضب ممزوج بحيرة، مالذي تفعله هنا الآن، أيعقل أنها تنتظره!

احـــتـــيـــاج

لوى شفتيه في قرف قائلا:

- تمثيلية المرأة الحنون التي تقلق على زوجها.

اقترب منها وهو مصمم على إنهاء هذه التمثيلية التافهة التي تعيشها، سيجعلها تعرف قدرها ومكانتها، ولن يسمح لها بالاقتراب منه والتدخل في حياته أبدا.

اقترب منها أكثر ولكن صوته تحجر في حنجرته وهو يراها بهذا القرب لأول مرة، لقد كانت مثالا حيا للفتنة، هذا الأسود الذي زاد بياض بشرتها العاجية توهجا، وهذه الملامح الملائكية التي تسحبه إلى هالتها دون وعي منه.

انتزع نفسه من هذه الأفكار في عنف وقد تضاعف غضبه أكثر لضعفه أمامها، هو الذي عرف من هن أجمل منها بكثير، كان الغضب يعصف به عصفا وهو يرى تزينها وتأنقها هذا، لتتجسد أمامه صورة عاهرة حقيرة تستجديه بجسدها، وكأن هذا الخاطر الأخير أعاد إليه صلابته كلها ليجد صوته أخيرا صائحا في حدة:

- مالذي تفعلينه هنا في مكاني؟!

انتفضت جالسة وقد تمكن الذعر من كل خلاياها، ثم قالت في صوت مهزوز:

- كنت...أنتظرك...

احـــتـــيـــاج

احتقنت ملامحه في حنق وهو يسمع هذه الكلمات، فصاح بقوة أكبر:

- أخبريني مالذي بيني وبينك حتى تنتظريني!

قالت في حذر:

- كنت أعتقد بأني زوجتك.

وكأنها بهذه الكلمات قد صبت بنزينا على ناره المشتعلة، فأمسك بها من شعرها ورفعها في عنف وهو يصرخ بقوة أكبر:

- كل ما بيننا هو عقد سخيف، ما إن يتم حتى يذهب كل منا إلى جحيمه.

ظل يرمقها بنظرة كاسرة، كان يريدها أن تتحدث أن تقول شيئا ولكنها لم تكن تجيد سوى ممارسة الصمت، هزها بعنف قائلا:

- تكلمي قولي شيئا!
- هل هذا كل ما تفكر فيه، علاقة جسدية لعينة تنجب منها طفلا وليذهب كل شيء إلى الجحيم؟!.
- ومالذي تفكرين فيه أنت، هل هناك شيء غير هذا في عقلك، مالذي سيجمع بيننا، أنا مجرد ظل رجل قادم من ألعن منطقة في الجحيم، وانت مجرد فتاة رخيصة باعت نفسها وسلمتها لرجل لا تحبه من أجل حفنة دنانير!!

نظرت إليه باستنكار ولكنها لم تعقب، كانت تريد أن تصفعه، أن تخنقه بكلتا يديها ولكنها كانت تعلم أن أي خطئ منها سيكلفها الكثير، لهذا اكتفت بالضغط على يديها حتى انغرست أظافرها في لحم يديها الطري، أكمل والشرر يتطايرمن عينيه:

احـــتـــيـــاج

- لماذا صمت مرة أخرى؟ لأنني محق أليس كذلك؟!

صحيح أنني مجرد سكير مدمن، ولكني لم أفكر يوما أن أبيع نفسي من أجل المال، لم أفكر يوما في أني مقابل بضعة أوراق نقدية سأنجب طفلا بريئا إلى الدنيا...

قاطعته، بصوت أبح:

- أنت لا تعرف شيئا...

ثم دفعته عنها بقوة مستغلة إفلاته لشعرها وركضت إلى غرفتها، لحقها قبل أن تقفل باب الغرفة على نفسها، سكوتها كان يستفزه، برودها كان يقتله، مسايرتها لأفعاله يخرجه عن طوره، لهذا قرر أن يجعلها تظهر على حقيقتها، سيستفزها إلى أن تخرج مخالبها لعله يجد مسوغا ليصب عليها براكين غضب ظلت لسنين تغلي داخله، قال بعد أن ثبتها على الحائط أمامه:

- لماذا تهربين؟ لأنك تعلمين أن ما أقوله صحيح، أليس كذلك؟!

أشاحت بوجهها عنه في قرف حقيقي، قربه منها بهذه الطريقة يصيبها بالغثيان، أدار وجهها إليه بأصابعه وثبته في مواجهته ثم واصل:

- هل جسدك رخيص عندك إلى هذا الحد؟ أخبريني إذا كم من رجل عبث به قبل...

أسكتته صفعة قوية من يدها بترت جملته في منتصفها ثم خلصت نفسها من بين يديه في عنف مستغلة الجمود الذي أصابه لتركض إلى الحمام وتفرغ كل ما في جوفها داخل الحوض.

احـــتـــيـــاج

جلست على الأرض بعدما أحكمت إغلاق الباب، كان الدم ينبض في صدغيها لدرجة جنونية وقلبها يكاد يخرج من مكانه، كانت تفكر في كل شيء دفعة واحة؛ اشمئزازها منه، تفكيره الخاطئ تجاهها وتصرفها المتهور ضده، هذا التصرف الذي سيكلفها الكثير على ما يبدو.

قطع حبل أفكارها طرقاته المجنونة على الباب، انكمشت على نفسها أكثر وأسندت ظهرها إلى الباب تدفعه بكل ما أوتيت من قوة، هي لم تره هكذا من قبل، لا تدري مالذي حصل له، صحيح أنها لم تقض وقتا طويلا معه، ولكنها لم تره يوما هكذا، هو الآن هائج، جامح، مخيف لدرجة أن الرعب كان يستبد بها ما إن تتذكر ملامحه...

صرخ في غضب:

- افتحي هذا الملعون قبل أن أصيره قطعا صغيرة.
- .....
- قلت افتحي وإلا ستدفعين الثمن غاليا.
- .....

قبل أن تفكر فيما ستقوله أو ما ستفعله شعرت بالباب يهتز من خلفها وكأن جنيا تلبسه، قامت من مكانها مبتعدة عنه وفي ثاني دفعة انخلع من مكانه ليقف أمامها وحشا كاسرا ومرعبا إلى أبعد حد.

اقترب منها والشرر يتطاير من عينيه، نظرت إليه نظرة واحدة جعلت قلبها يسقط عند قدميها، نعم كانت شجاعة وقوية لطالما أخذت حقها حتى من رجال كانوا يظنون أنفسهم أشداء، ولكن الأمر مختلف معه، شيء ما فيه

احـــتـــيـــاج

يجعلها تصاب بالهلع منه، وكأنه خرج من الجحيم لتوه، وقفت متسمرة في مكانها للحظات ثم تهاوت فاقدة الوعي، أسرع إليها وبحركة واحدة كانت مستقرة بين ذراعيه، حملها إلى الغرفة ثم بعد أن وضعها على السرير فحص ردة فعلها بطريقة آليه وكأنه يفعلها منذ زمن، نظرة إلى بؤبؤ عينيها وفحص سريع لنبضها بعد أن تحسسه على عنقها، بعدها قرر بأنه إغماء بسيط لا تلبث أن تفيق منه.

في هذه الأثناء رن هاتفها، أمسك به بين يديه وقرأ اسم المتصل ((أبي))، ابتسم في احتقار، لا بد أنه يريد الاطمئنان على سلعته بعد أن باعها بأبخص الأثمان، ضغط على زر الرد فجاءه صوت والدها:

- ألو ياسمين ابنتي، كيف حالك؟
- أنا وائل.
- مرحبا بني كيف حالك؟

كان يريد أن يصرخ في وجهه ويقفل الخط بعد أن يسمعه أقذع الألفاظ ولكنه سمع نفسه يرد:

- بخير.
- كيف حال ياسمين لماذا لم ترد هي على هاتفها، هل هي بخير؟

قال في تهكم:

- بخير، ومالذي سينقصها؟

احـــتـــيـــاج

- لا أقصد الانتقاص منك بني صدقني، ولكنها ابنتي الوحيدة وزواجها بذلك الشكل السريع والمفاجئ وكذا عدم اجتماعي معك والحديث إليك يجعلني قلقا عليها بعض الشيء.

شعر ببعض الاستغراب ، شيء ما ينبئه أن هذا الرجل يجهل الأمر الذي فعلته ابنته، أجابه في توجس:

- ألم تستشرك في أمر زواجنا؟
- بلى استشارتني، ولكن كل شيء حدث فجأة فكما تعلم أنا كنت مريضا وخارجا لتوي من عملية زراعة قلب، لابد أنها قد حكت لك عن هذا، لهذا هي لم تكن تكلمني عنك وفجأة صارحتني بأمر الزواج، ولم أجد بدا من أن أوافق لأني أثق بها، وأكرر هذا ليس انتقاصا منك يا بني، ولكني قلق على ابنتي، ستختبر هذا الشعور حتما ما إن ترزق بابنة، المهم كنت أريد أن أحدثك لأطلب منك مقابلتي، أريد أن أتعرف أكثر عليك أكثر إن لم يكن هناك مانع.
- لا بأس سوف نتفاهم لاحقا حول هذا الأمر، أما الآن فعلي أن أقفل.

وقبل أن يرد الحاج محمود كان الخط قد فصل.

استغرب من تصرفات زوج ابنته الغريبة وازداد إصرارا على لقائه.

بعد لحظات شعر بها تتململ في مكانها، وما هي إلا لحظات حتى فتحت عينيها في ضعف، نظرت حولها وهي تجاهد لتتذكر ما حدث، ثم انقبضت ملامحها فجأة وهي تدير عينيها حولها لتجده جالسا أمامها على كرسي، انتفضت واقفة فثبتها في مكانها قائلا:

احـــتـــيـــاج

- لديك هبوط حاد للسكر في الدم، وهذا راجع إلى سوء التغذية التي عرضت نفسك لها مؤخرا لهذا لا تتحركي كثيرا.

قالها مادا يده إليها بقطعة من الحلوى، رفضت أخذها وحاولت مرة أخرى الوقوف ولكن الدوار استبد بها فجأة ليلزمها مكانها.

واصل الكلام بعد استقرارها في مكانها:

- على العموم سنؤجل الكلام الذي بدأناه قبل قليل إلى أن تستردي عافيتك.

قام من مكانه متجها نحو الباب وهو يقول:

- طلبت لك بعض الطعام سيصلك بعد قليل، تغذي جيدا لأنه لدينا كلام كثير لنقوله.

أمسكت هاتفها متفحصة إياه، ثم هبت واقفة وهي مرتاعة ما إن وجدت مكالمة من والدها تم الرد عليها، ركضت محاولة اللحاق به متجاهلة كل ذلك الدوار الذي أصابها ولكنه كان قد غادر، استدارت عائدة ولكن رنة جرس الباب جعلها تعود لتفتحه، كان الطارق عامل توصيل مطاعم سلمها الوجبة ثم طلب منها التوقيع على وصل استلام.

اتجهت إلى المطبخ وأرادت أن تتركها هناك على الطاولة وتعود إلى غرفتها ولكن الروائح المنبعثة منها شدتها فجلست تفتح الأكياس، كان الكيس الأول يحتوي على علبة فيها حساء بروكلي جعلت رائحته معدتها تستجيب لها على الفور بقرقرة خفيفة وإلى جانب طبق البروكلي علبة تحتوي شريحة لحم ضأن مشوي كبيرة، أما الكيس الثاني فكان يحتوي على كيس صغير فيه بعض شرائح الخبز، وقنينتي ماء وكوكاكولا.

احـــتـــــيـــاج

تمتمت في وهن:

- مناسبة تماما وفي وقتها أيضا.

ثم شرعت تأكل طعامها وهي تفكر في أمر المكالمة التي حدثت بين وائل ووالدها، ترى مالذي قاله له، هل يكون قد أخبره بطبيعة زواجهما، ارتجف جسدها لمجرد التفكير في ذلك، كانت خائفة أن تتصل بوالدها، كيف ستواجهه وماذا ستقول له؟، ولكنها كانت في نفس الوقت تموت خوفا بمجرد التفكير في أن مكروها قد يصيبه.

انتظرت طويلا حتى يئست من قدومه وبعد أن كادت تغفو على الأريكة وهي تنتظره كعادتها شعرت بالباب يفتح، هبت واقفة لتواجهه، كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بحوالي نصف ساعة، وقف يواجهها بسرواله الجينز، وقميصه الأبيض من ماركة puma، وسترة الجلد السوداء، وعلى ملامحه نظرة استهزاء كانت ياسمين تكرهها أكثر من أي نظرة أخرى، قالت صارخة في وجهه:

- كيف سمحت لنفسك أن تجيب على هاتفي؟.

ازدادت ابتسامة الاستهزاء اتساعا على وجهه وقال:

- هذا ما أريده بالضبط، أن تبرزي مخالبك السامة كي أعرف مع من أتعامل.

احـــتـــيـــاج

تجاهلت أسلوبه المستفز واقتربت منه وقالت وهي تشدد على مخارج حروفها:

- مالذي قلته لوالدي؟!

ابتسم في خبث وقال:

- إذا كما توقعت، الأميرة الجميلة باعت نفسها دون علم والدها.

قالت بعد أن فقدت أي دافع للتعقل وهي تضرب بيديها على صدره:

- أخبرني أيها السكير الأحمق ماذا قلت لوالدي!؟.
- أظن أن لقب سكير أفضل من لقب عاهرة.

قالها وهو يشدد على آخر كلمة، رفعت يدها لا إراديا لتصفعه مرة أخرى ولكنه التقط يدها في قبضته في لمح البصر، وبلقطة خاطفة طواها خلف ظهرها وضغط عليها متعمدا إيلامها قائلا:

- إن ارتفعت هذه اليد أمامي مرة أخرى صدقيني سأكسرها.

قالت في ألم:

- ماذا قلت لوالدي؟!.

رد بعد أن قرب شفتيه حتى كادتا تلامسان أذنها، ويده ماتزال تثني يدها:

- الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة، نعم أنا سكير ومدمن ولكنني لست كاذبا ولا عا...

احـــتـــيـــاج

بتر جملته متعمدا استثارتها ولكنها لم ترد، شعر بجسدها يهتز بين يديه ليكتشف أنها كانت تبكي، أفلت يدها وأدارها ناحيته، كان يشعر بالضعف أمام دموع الأنثى فمنظر أمه وهي تبكي كل ليلة لا يكاد يفارق خياله أبدا.

حاول تهدئتها فقال بصوت هادئ حنون فاجأه هو قبلها:

- حسنا أنا لم أخبره بشيء صدقيني، توقفي عن البكاء الآن.

رفعت عينيها إليه في لوم وهي ترميه بنظرة نارية اضطرب لها قلبه دون أن يعرف السبب، أما هي فكانت تشعر بالخجل من نفسها لأنها شعرت بالضعف لأول مرة أمامه، ولكنها لم تستطع تمالك نفسها، ما إن أخبرها بأنه أطلع والدها بالحقيقة حتى شعرت بأن الدنيا قد أظلمت في وجهها دفعة واحدة، قالت في صوت مبحوح:

- ماذا قلت له؟

شعر ببعض اتزانه يعود إليه ما إن توقفت عن ذلك البكاء اللعين، فقال محاولا استرداد تحكمه في الحوار:

- ولكن هذا لا يعني بأني لن أخبره، أنا لا أريد أن أكون في لعبة قذرة مثل هذه، ولا أريد أن أكون طرفا فيها.

قالت في نبرة متوسلة:

- أرجوك، أبي مريض ولن يتحمل هذا!

احـــتـــيـــاج

قال في حنق:

- لماذا إذا أقدمت على هذا الفعلإن كان والدك لا يستطيع تحمله!؟

قامت من مكانها دافعة إياه في عنف:

- أنت لا تعلم شيئا، لهذا لا تسأل عن أشياء تجهلها!

قال في حنق وهو يمسك بيدها مانعا إياها من الابتعاد:

- إن لم أعرف اليوم كل شيء فسأخبر والدك غدا بكل ما أعرفه.

أفلتت يدها من قبضته وركضت إلى غرفة النوم، قال دون أن يحاول اللحاق بها:

- سأمنحك ساعة واحدة ستكونين بعدها هنا أمامي وإلا سيعلم والدك كل شيء.

وصلت إلى الغرفة وجسدها كله ينتفض، ألقت بنفسها على السرير وبكت طويلا حتى شعرت برأسها وقد أصبح فارغا، ثم جلست تضم ركبتيها إليها وهي تفكر في عجز، مالذي ستفعله الآن؟!

إن هي كتمت الأمر عنه فسيخبر والدها حتما، وإن هي أخبرته وعلمت هدى بهذا فستدمرها، تمنت لحظتها لو أنها كانت تجيد الكذب، على الأقل كانت خلصت نفسها بطريقة ما، تنهدت بعمق ثم مسحت دموعها واتجهت إلى الصالة.

احـــتـــيـــاج

كان جالسا على الأريكة يفكر في هذا الجنون الذي يفعله، ما شأنه هو بها وبسرها فلتحترق بسرها، لماذا يريد أن يعرف سبب زواجها به، أيا كان السبب فهذا لا يهم، لن يعنيه هذا الأمر شيئا، أم أنه كان يريد أن يلومها على ذنب رضي به مثلها، كان جزء منه يتمنى أن لا تجد أمه امرأة ترضى بهذا الجنون، بينما جزؤه الآخر كان يتمنى أن تعثر على امرأة تليق لأن تكون إما لولد سيخفق هو حتما في أبوته، إذا لماذا يشعر الآن بهذا الغضب وهو يشعر أن هذه المرأة ليست بالسوء الذي تصوره!

ربما لأنه سمح لغضبه القديم أن يطفو، كان جانب خفي منه يريد أن تكون مجرد امرأة رخيصة يلقي عليها عيوبه ويعلق عليها أخطاءه دون أن يبالي، ضم قبضته في حنق، ثم أغمض عينيه بشدة محاولا فهم بعض هذه التناقضات التي كانت تتقاذفه.

شعر بها وهي تدخل فأشاح ببصره عن الباب وأخفض عينيه متجنبا النظر إليها، جلست أمامه على الأريكة، ظل الصمت سيد الموقف للحظات قبل أن يقول شاقا جداره بصوته الجاف:

- تحدثي ولا تطيلي، واحذري الكذب لأني سأكتشفه حتما وساعتها لن يردعني أحد عن تدميرك.

تنهدت بعجز قائلة:

- لم أكن أريد هذه الزيجة بقدرك وربما أكثر، ولكن لا أمك ولا القدر منحاني فرصة للاختيار.

احـــتـــــيـــاج

شعر بقبضته تتراخى وهي تكمل:

- كان أبي مريض قلب أمامه أسبوع ليعيشه وكان الحل الوحيد في عضو طُلِب مقابله ثروة وكانت أمك بعرضها السخي وكنت أنا في وسط كل هذا عاجزة.

خانتها دمعتان متمردتان عرفتا الطريق خارج سجون عينيها، ولكنها ردعت نفسها بشدة ومسحتهما بسرعة قائلة:

- مصيري الآن بين يديك، فإن علمت أمك بهذا دمرتني، وإن أنت كتمت فلن أنسى لك هذا المعروف ما حييت.

قال بجفاء رغم أنه لا ينكر أن صورتها القديمة التي رسمها لها تصدعت تماما، لتظهر مكانها صورة لأنثى أخطر بكثير عليه من سابقتها:

- وماذا كان المقابل؟ كله!

قالها مشددا على كلمته الأخيرة فقالت في حرج وهي مدركة تماما معنى سؤاله:

- أن أتزوجك!

ثم أردفت في حرج أكبر:

- وأن أعالجك!

احـــتـــيـــاج

انفرجت شفتاه عن شبه ابتسامة ساخرة ثم قال بلهجة آمرة:

- أكملي!

ازداد حرجها وقد ضمت يديها إلى حجرها قائلة:

- أن أجعلك تحبني!

هنا تحولت ابتسامته الهازئة إلى قهقهة ساخرة زادتها حرجا فانفرجت شفتاها لترد ولكنها عادت لتغلقهما وهي تنتظر ردا أسوأ من هذا بكثير، ولكنه اكتفى بقوله بنبرة غريبة هذه المرة في استهزاء اختلط بمرارة غريبة:

- وأنت هل ستحبينني؟!

أجفلت من هذا السؤال الذي لم تتوقعه منه، ولكنه اقترب منها أكثر ثم وضع يديه على كتفيها ليهزها بعنف قائلا:

- أخبريني هل ستحبينني!؟، هل ستحبين رجلا قلبه احترق حتى آخر ذرة فيه، ستحبين رجلا ضعيفا مهزوزا؟! ستحبين مدمنا سكيرا لا قلب له!

كان يلهث وأنفاسه تتلاحق ولكنه أكمل بعنف أكبر:

- أريني كيف ستبعثين هذا الرماد لتجعليه حيا مرة أخرى، أريني كيف ستبعثين الحياة في الموات.

أخذ ثوان ليستجمع فيها أنفاسه بينما بقيت هي ساكنة بين يديه وقد أغمضت عينيها هربا من ملامحه التي تبدت لها كشيطان منبعث من أعماق الجحيم، واصل وقد هدأت أنفاسه قليلا بينما استعاد صوته الهادر بعض جفائه قائلا:

احـــتـــيـــاج

- ستحترقين في هذا الجحيم الذي أتلظى فيه دون أن تستطيعي تحريك ساكن!

فتحت عينيها ببطء بعد أن شجعها صوته الذي هدأ قليلا لترى الألم يزحف ليمحو آثار القسوة من ملامحه، أشاح بوجهه عنها عندما التقت عيناه بعينيها الزرقاوين الصافيتين ثم اتجه خارج الشقة.

أخذت نفسا عميقا محاولة تهدئة دقات قلبها التي كانت تتقافز حتى تكاد تلقي بقلبها خارج صدرها، وضعت يديها عليه علها تهدئ نبضاته الثائرة وهي تفكر في ما قاله لها:

- وأنت هل ستحبينني!؟.

كان سؤالا عاديا لو أنه وجه لامرأة غيرها، ولكنه لمس بهذا السؤال أكبر هواجسها وهو يرمي بها بلا رحمة في جحيم ذكريات أمضت عمرا تحاول تناسيها، صحيح أن عودة والدها إليها ورجوعه عن خطئه أزال عنها بعض مخاوفها، ولكنها في كل مرة يضعها القدر أمام هذا الماضي تكتشف أنها لم تشف منه أبدا بل تشعر وكأنها عاشت طول حياتها وهي تعدو هاربة منه دون أن تجد الراحة لتلتقط أنفاسها!

عادت إليها مشاعر الشفقة نحوه رغما عنها، نسيت كل ما حدث بينهما للحظة، وعاودتها نفس الرغبة في انتشاله من ألمه، مع حذر أكبر هذه المرة خاصة وهي ترى وجهه الآخر الذي لم تره من قبل، يجب عليها أن تهدهد هذا المارد الذي داخله عوض أن تستفزه لتخرجه من قمقمه، وعلى هذا

احـــتـــيـــاج

الخاطر اتجهت إلى الخزانة لتختار ثوبا ساترا بقدر ما سمح به ذوق مدام هدى وهي تعرف جيدا مالذي ستمنحه له بعد اليوم.

هو لا يحتاج أنثى تستفز رجولته بقدر ما يحتاج حضنا يحتوي الطفل الصغير داخله، وهي ستتعامل من اليوم وصاعدا مع هذا الطفل الصغير المنزوي بين جدران روحه.

احـــتـــيـــاج

ضرب الجدار أمامه في عنف ثم صرخ صرخة عظيمة وهو يدور حول نفسه كحيوان جريح، كيف سمح لنفسه بأن يتنازل معها إلى هذا الحد!

أن يجلس معها ويستمع إلى قصتها اللعينة، هذا ما لم يظن أنه سيفعله يوما، كان يظن بأنه قد حصن نفسه بتلك الصورة السيئة التي رسمها لها، فتاة رخيصة ومناسبة لأن يفرغ جام غضبه عليها كلما أراد، ولكن هذه الصورة بدأت بالاهتزاز بعد أول لقاء لهما معا، ارتجافة جسدها بين ذراعيه -بغض النظر عن عذريتها- أمر لم يستطع تجاهله، كل ذرة في جسده تكاد تقسم أن هذه الفتاة بريئة ولا تتصنع شيئا من خوفها وتوترها، ولكنه تجاهل كل هذا ومضى يعالج صدوع هذه الصورة التي كانت تتصدع أكثر فأكثر بمجرد نظرة إلى عينيها كما حدث في ذلك الصباح اللعين.

ثم جاءت ليلة البارحة التي كان يريد فيها إخراجها من عالمه الخاص وعدم السماح لها بالتدخل في حياته مرة أخرى فإذا به يفاجأ بما لم يعتقده يوما، أو ربما بما كان يعتقده من الأساس ولكنه فضل أن يدفن هذه الشكوك في قرارة نفسه ويخالفها إرضاء لأفكاره المريضة.

هي لم تعد الشماعة التي تصلح لتعليق أخطائه، وكيس الملاكمة الذي سيخرج فيه سيل غضبه، بل صارت علامة بيضاء ناصعة في سجل حياته الأسود، بيضاء نقية تفضح سواده المخزي.

كانت الأمطار تهطل غزيرة عليه ولكنه لم يبالي بها كعادته، كان يمشي على غير هدى إلى أن قادته قدماه إلى شقته، تنهد بعمق ثم دخل إليها ثم إلى الغرفة بعدها، كانت نائمة كعادتها فتنهد في ارتياح ثم أخذ محقنا ولفافة تبغ

احـــتـــيـــاج

وخرج من الغرفة دون أن يبدل ملابسه، عاد إلى الصالة وارتمى على الأريكة، أنهى سيجارته وجسده كله يرتجف، ولكنه تجاهل كل هذا وكأنه ينتقم من نفسه، ثم مد ذراعه واطفأ السيجارة فيه وأغمض عينيه مستسلما للنوم.

احـــتـــيـــاج

استيقظت صباحا وهي تشعر بهدوء غريب على طبعها المتقلب هذه الأيام، بعد أن رتبت غرفتها اتجهت إلى المطبخ لتعد وجبة الفطور كعادتها، ولكنها فوجئت بهمهمات خفيضة تبدو وكأنها لشخص يهذي، اتجهت إلى الصالة لتجده نائما على الأريكة كعادته، تلك الأريكة التي لم تستطع احتواء طوله الفارع فاستكان جزء من جسده خارجها، اقتربت منه أكثر وتأكدت من أن هذا الهذيان كان يأتي منه.

كانت ملامحه تتقلص في ألم وصدره يعلو ويهبط بطريقة غريبة، فكرت في أنها إحدى كوابيسه كعادتها، اقتربت منه أكثر وحاولت إيقاظه رغم تحذيره السابق لها، نادته قائلة:

- وائل استيقظ!.

لم يستجب لها فقررت إيقاظه بضربات خفيفة على خده ولكنها ما إن لمست بشرته حتى تراجع يدها فجأة في صدمة، لقد كان جسده فعليا يحترق، لمست جبينه فكان أكثر التهابا، انتبهت إلى ثيابه فوجدتها مبتلة عن آخرها، تنهدت في حيرة، يبدو أنه قد تعرض لأمطار الليلة السابقة كلها.

حاولت إيقاظه مرة أخرى فكررت نداءاتها إلى أن فتح عينيه في عجز ليواجه بحار عينيها اللازوردية، ظل لثوان مشدوها تائها في نظراتها وكأنه أسير لتلك العينين، ثم أشاح ببصره بعيدا وقال بصوت أبح أجش بسبب المرض:

- ماذا تريدين؟؛ ألم أحذرك من إيقاظي هكذا؟

احـــتـــيـــاج

تنهدت في عجز ثم قالت:

- وائل أنت مبتل تماما، كيف تنام هكذا ألا تخاف أن تمرض؟

ابتسم في مرارة ثم قال بخفوت:

- أظن بأني فعلت أكثر من هذا.

نظرت إليه متسائلة، فأشاح بوجهه عنها وأغمض عينيه في ألم واضح محاولا تجنب نظرات عينيها التي تسحبه دون وعي منه إلى بحرهما الذي يغريه بالغرق.

قالت في صبر:

- وائل عليك أن تغير ثيابك، حرارتك مرتفعة جدا وهذا خطر عليك.

رمقها بنظرة حادة ثم هتف في غضب:

- ابتعدي عني هذا لا يعنيك.

تجاهلت حدة صوته ونظراته الغاضبة ووضعت يدها على جبهته مرة أخرى وهي تقول:

- إما أن تنهض معي الآن وتذهب إلى الغرفة لتغير ثيابك وتستريح على السرير، أو سأتصل بمدام هدى وأخبرها عن حالتك.

نظر إليها نظرة نارية ثم تنهد في استسلام وحاول رفع نفسه عن الأريكة ولكنه لم يستطع فمدت يدها لمساعدته، تردد قليلا ثم أمسك بيدها وقام معها إلى الغرفة، أعطته بيجامة مريحة ليرتديها، غير ثيابه وهو يلهث من شدة التعب وكأنه أتى مجهودا جبارا، ثم اتجه نحو السرير وألقى بنفسه فوقه،

احـــتـــيـــاج

أغمض عينيه في ألم ثم فتحهما فجأة وهو يشعر بها تضع شيئا باردا على جبهته، نظر إليها في استنكار فابتسمت ابتسامة جعلت صدره ينقبض ثم قالت في تحد:

- إما أن تكون مريضا عاقلا أو أن أتصل بمدام هدى لتشرف بنفسها على علاجك.

تنهد في عجز وأغلق عينيه متجاهلا مشاعره المضطربة داخله والتي يستشعرها لأول مرة في حياته هكذا.

احـــتـــيـــاج

آخر شيء كانت تتوقعه هو أن تشفق على حالته، كانت تتوقع من نفسها لا مبالاة تامة به، ولكنها على عكس ما توقعت خانتها مشاعرها فشعرت بعطف كبير تجاهه، وكأن مشاعر الأمومة استيقظت داخلها عندما رأت ملامح الألم تكسو وجهه، تماما كطفل عاق لا تملك أمه رغم غضبها منه إلا أن تحتويه عند مرضه.

شعرت بعد مدة بأن حرارته بدأت تنخفض، ثم انتبهت إلى انتظام أنفاسه فزفرت في ارتياح، يبدو أنه قد نام، أطفأت المصباح بجانب السرير وأسدلت الستائر الثقيلة وأغلقت الباب خلفها.

فكرت في أن تتصل بمدام هدى لأنها إن عرفت من شخص آخر فستدمرها حتما خاصة بعد ما حدث في آخر لقاء لهما، ولكنها تراجعت عندما فكرت في وائل، هو سيغضب منها حتما ويهرب أكثر وهذا ما لا تريده حاليا، لن تغامر به تريده أن يثق بها لتستطيع انتشاله من ذلك السواد الذي يغرقه.

اتجهت إلى المطبخ وأعدت حساء خضر دافئ بقطع اللحم مع عصير فواكه طبيعي، ثم اتجهت إلى الغرفة لتجده مايزال نائما، جلست على كرسي بجوار السرير وأخذت تتأمل ملامحه الهادئة التي لم ترها بوضوح كهذا من قبل.

فكرت في أنه وسيم أكثر مما ظنت بكثير، حواجبه الكثيفة المتناغمة مع رموشه الأشد كثافة وأنفه الشامخ الأشم وشفتاه الدقيقتان، ولحية خفيفة بدأت بالنمو لتزيده جاذبية، كانت ملامحه أشبه بملامح إله يوناني هارب من أسطورة يونانية، مدت يدها في لحظة سهو لتمسد على هذه الملامح ولكنها انتبهت فجأة لهذا الجنون الذي تفعله، فأغمضت عينيها بشدة وهي تنفض

رأسها من هذه الأفكار ثم فتحتهما ليفتح عينيه هو الآخر، نظر إليها في كسل فخفق قلبها في خوف، لقد عرفت الآن مصدر خوفها من وائل، عيناه!

عيناه هما أكثر شيء يرعبها، لم يكن سوادا ما يلون حدقتيه بل ظلام، ظلام حالك بلا قرار، أغمضت عينيها وهي تتساءل أي حياة عاشها هذا الرجل لتغرق عيناه في كل هذا الظلام.

نظر إليها في استفهام قائلا:

- لا أظن أنك أتيت إلى هنا لتشاهديني وأنا نائم.

فتحت عينيها في استنكار مشيرة إلى الطبق إلى جانبه وهي تقول:

- أعددت لك وجبة ساخنة، عليك أن تأكلها الآن قبل أن تبرد.

قال وهو يدفع بنفسه ليقوم من السرير:

- لا أريد شيئا منك، فقط دعيني وشأني.

نظرت إليه في تحد قائلة:

- أنا لم أخبر مدام هدى بعد ولكن هذا لا يعني بأني لن أخبرها.

اشتعلت عيناه في غضب وهو يكز على أسنانه قائلا:

- من أنت حتى...

ولم يكد يكمل جملته حتى شعر بجسده يتهاوى على السرير، ابتسمت في تشف وهي تقول:

- أرأيت حتى جسدك يعاندك!.

احـــتـــيـــاج

تنهد في عجز وأمسك صينية الطعام بين يديه بينما خرجت هي من الغرفة لتترك له بعض الحرية.

عادت بعد فترة إلى الغرفة لتجده نائما مرة أخرى، ابتسمت في حنو ومدت يدها لتتلمس جبينه ولكنه أمسك بيدها بحركة لا واعية ثم سحبها نحوه في حركة سريعة لم تتوقعها لتستقر بين أحضانه، ضمها إليه بقوة مما جعل جسدها كله ينتفض ودقات قلبها تقرع بشدة لم تشهدها من قبل، قال بهمهمات تكاد تكون غير مفهومة:

- أمي أنا أشعر بالبرد...

كانت تحاول التخلص من ذراعيه عندما سمعت هذه الجملة التي همس بها ورأسه يستقر على صدرها، ظنت بأنها لم تسمع جيدا فأردف بنفس النبرة:

- أمي لا تتركيني أرجوك...

توقفت عن محاولة التخلص من حضنه واستكانت للحظات مسحورة بهذه النبرة التي اكتساها صوته والتي تختلف تماما عن نبرته القوية الباردة المتسلطة التي اعتادت أن تسمعها، كان صوته هادئا أبحا ودافئا!!

دافئ!! هذا الرجل البارد المقيت يستطيع أن يكون دافئا!!، ليس فقط صوته بل كل جسده كان دافئا، بل وإنها شعرت لأول مرة منذ أن عرفته بأنه حي!!

ظلت لدقائق مشدوهة ثم استسلمت لسيل المشاعر الذي كان يجتاحها بعنف، رفعت يدين مرتعشتين ثم ودون سابق مقدمات أحاطت بهما جسده وأغمضت عينيها غارقة في خدر لذيذ، لقد خانتها الأمومة مرة ثانية!

احـــتـــيـــاج

ظلت على حالها لفترة لا تعلم مداها، تحتضن جسده الذي استكان الآن بين يديها وأنفاسه الحارة تلفح عنقها مخلفة قشعريرة تسري في كامل جسدها، هي لم تكن تشعر بأنها تحتضن ذلك الرجل البارد، بل كانت تعلم في قرارة نفسها أنها الآن تحتضن وائل الطفل الذي كان يشعر بالبرد فلا يجد صدرا يدفئه، وائل الذي لطالما احتاج إلى حضن أمه فحرم منه، شعرت بعاطفة غريبة نحوه عندما راودتها هذه الأفكار فشدت من قبضة يديها حوله، هو نائم الآن ولا يشعر بها ولكنها تدري بأنه حتما في لا وعيه يستشعرها وهذا يكفيها حاليا.

لم تشعر بالنعاس كيف تسلل إلى عينيها ولا به عندما فتح عينيه ليشعر بذلك الدفء الغريب وهو يطوقه، لثوان شعر وكأنه لا يريد رفع رأسه لمعرفة هذا الكيان الغريب الذي يحتضنه بكل هذا الدفء العجيب، استكان تحت وقع هذا الحضن الذي أشعره بأنه في جنة، ولكنه أرغم نفسه على رفع رأسه من على صدرها ليفاجأ بها تحتضنه وملامحها الناعمة نائمة في سكينة، نسي نفسه للحظات يتأمل هذا الملاك الذي يتشبث به، شعر بانقباض غريب في قلبه لم يشعر بمثله من قبل، كاد يستسلم لهذا الشعور ولكنه سحب نفسه فجأة من بين يديها كالملسوع رافضا بكل ذرة في عقله مثل هذه المشاعر.

فتحت عينيها في ذعر وهي تشعر بانتفاضته بين يديها ثم قالت بصوت مبحوح ما يزال فيه أثر للنعاس:

- وائل؟ هل أنت بخير؟

دفعها عنه في عنف لم يقصده قائلا بصوت أجش:

- هذه الحركة لا تعيديها مرة ثانية.

احـــتـــيـــاج

نظرت إليه بنظرات كسولة قائلة:

- أية حركة؟!

زفر في غيض قائلا:

- كيف تجرئين على احتضاني هكذا.

ابتسمت في براءة طفلة قائلة:

- أظن أنه يجب أن تقول لنفسك هذا الكلام.

نظر إليها في استفهام لا يخلو من نظرة وعيد، فأردفت:

- أنت من سحبتني إلى حضنك لتغلق علي ذراعيك الحديديتين اللتان قضيت ساعة وأنا أحاول الفكاك منهما إلى أن غلبني التعب فنمت.

نظر إليها في شك ثم قال بنبرة باردة:

- حسنا أنا آسف، لن يتكرر هذا الأمر مرة أخرى.

تناول سيجارة ثم وأخرج سيجارة واتجه إلى الشرفة، فنهضت هي الأخرى ولحقت به، فتنهد في نفاد صبر قائلا:

- خيرا!

قالت في برود وهي تنظر إلى الحديقة تحتهما:

- لا شيء.

احـــتـــيـــاج

زفر مداريا رغبته حاليا في خنقها بيديه، هي تستفزه بنبرتها الباردة هذه والتي يعلم بأنها تتصنعها دون أن تعلم بأنها تشعله أكثر ببرودها هذا، قال في غيظ:

- حسنا إذا سأترك لك المكان بما فيه.

ثم أردف في وعيد وهو يرفع سبابته في وجهها:

- لا تلحقي بي.

راقبته وهو ينصرف، ثم ابتسمت ابتسامة حانية وفي داخلها كان الأمل يتنامى أكثر، حاجته التي فضحها صوته اليوم جعلتها تصر على ما بدأت به، لقد لمست الطفل الذي بداخله بأناملها، وحتى أنها أخذته بين أحضانها، لهذا لن تستسلم أبدا رغم أنها تعرف أن الطريق أمامها مازال طويلا.

احـــتـــيـــاج

كان جالسا في مكانه المعتاد على فراشه البالي يدخن سيجارة -وعشرات المحاقن وقنينات الخمر الفارغة تحيط به- يفكر في هذه الحال التي أصبح يعيشها مؤخرا، تلك المرأة التي اقتحمت حياته بهذه الطريقة الغريبة، هو الذي لم يهرب من شيء في حياته، حتى كوابيسه كان يعيشها إلى آخر دقيقة، حتى ذنوبه قرر أن يعاقب نفسه عليها بهذه الحياة البائسة التي يعيشها، يجد نفسه اليوم يهرب منها، يهرب من نظرة عينيها التي تشع بحنان لا قبل له به، يهرب من بياض تاريخها الذي يذكره بسواد تاريخه، يهرب من حضنها الذي تتهاوى أمامه أعتى حصون دفاعاته!

حضن استشعر من خلاله جنة قربها، جنة لا يستحقها شيطان مثله، الشياطين لا تستوطن الجنة، وهو شيطان لن يلبث أن يطرد منها مدحورا، هو لا يستحق أنثى مثلها، أنثى اختزلت كل النساء، هل يعقل أن يكافئه القدر -هو الآثم الذي يعشش الذنب في مسامه- بملاك مثلها!

نفض رأسه من هذه الأفكار وزجر نفسه عن التفكير فيها، لطالما عاش حياته وحيدا وهو راض بهذه الحياة ولن يحتاج كما لم يحتج يوما إلى أحد بجانبه، خاصة إن كان هذا الشخص أنثى!

أنثى! لماذا ينكر لطالما كانت الأنثى طعنة في خاصرة رجولته! من قال إن الرجل لا يحتاج إلى أنثى لتكتمل رجولته؟!

لطالما عاش حياته منقوصا من تلك الأنثى، من دفئها وحنانها، لقد كان يستشعر نقصها في كل تفصيل من تفاصيل حياته، فهل يهرب منها بعد أن وجدها!

احـــتـــيـــاج

أنثى ليست ككل النساء، أنثى تختزل حنان الدنيا كلها في حدقتي عينيها، كيف لرجل مثله عاش طوال حياته محروما منه أن يتجاهله، أن يتجاهل عينيها اللتان تفيضان به بسخاء، أن يتجاهل عطشه الكبير للاحتواء، هو الذي لطالما لسع البرد روحه، كيف سيستطيع تجاهل دفء أحضانها، كيف له أن يتجاهل الأمان الذي استشعره في تلك الثواني التي استكان فيها بين ذراعيها.

عاد ليلوم نفسه عن هذه الأفكار، هو لا يستحق هذا الحنان، لقد فات الأوان على أن يحاول انتشال نفسه من هذا المستنقع الذي يغرق فيه، فات الأوان على تدارك ذنوبه، الشياطين لا تعرف التوبة، وهو ولد ليكون شيطانا، شيطانا نبذته أمه ما إن وضعته وكأنها استشعرت سواد روحه، أولا تحس الأمهات بأرواح أبنائهن!.

شيطان امتد أذاه إلى أكثر شخص أحبه في هذه الحياة، لهذا أقسم أن لا يحب مرة أخرى لأنه لا يجيد سوى منح الأذى لكل الذين أحبوه!.

احـــتـــيـــاج

عاشت ياسمين أسبوعا صعبا منذ آخر مواجهة بينها وبينه، كان الصداع لا يفارقها والغثيان يصيبها بسبب ودون سبب، اتصلت بمدام هدى لتخبرها والتي استبشرت بدورها وذهبت بها إلى الطبيب، وبعد عدة فحوصات تلقت ما كانت خائفة منه طوال هذه المدة، قالت الطبيبة بابتسامة حانية:

- ألف مبروك مدام أنت حامل!

انقبض قلبها في خوف بينما انفرجت أسارير هدى التي باركت لها بحرارة والإبتسامة لا تفارق وجهها، قائلة في سعادة لم تستطع كبحها:

- سأتصل بوائل لأخبره.

ازداد انقباض قلب ياسمين لهذا وقادتها أفكارها إليه؛ ترى بماذا سيشعر إن عرف بالخبر، هو الذي مازال عالقا في طفولته، كيف سيتقبل فكرة أن يرزق بطفل!

لا لم تكن حزينة من أجل نفسها، لطالما تمنت أن تكون أما دون أن تفكر في الظروف، لقد كانت حزينة من أجله، هذا الخبر لن يزيده إلا شقاءً، وسيجعله يهرب منها ومن مسؤوليته أكثر، سيجعل كل مجهوداتها الأخيرة تضيع هباءً منثورا، حاولت أن تلفت نظر هدى لهذه النقطة ولكنها كانت قد اتصلت به وزفت إليه الخبر!

تنهدت في استياء وهي تسأل الله أن لا يزيده هذا الخبر انتكاسا.

احـــتـــيـــاج

سقط الهاتف من يده بعد تلقيه هذا الخبر، كان يتوقع هذا الأمر ولكنه لم يكن يتوقع حدوثه بهذه السرعة، إلى متى سيستمر في تجاهل هذه الحقيقة والهرب منها؟

بعد أشهر معدودة سيصبح أبا، هو الذي لم يفلح أن يكون شيئا من قبل، لطالما نجح في تجاهل أمور كثيرة أرقته، ولكن هذه الحقيقة بالذات لا يمكنه تجاهلها، من قال إنه لا يملك قلبا!؟

هو فقط حاول وما يزال يحاول تجاهله وحشره إلى زاوية صغيرة في صدره، متجنبا أي استسلام لمشاعر فقد الثقة بها، لم يكن يصدق شيئا اسمه الحب ولا يصدق أبدا أنه قد يبذل شخص ما دون مقابل، كل شيء في هذه الدنيا بمقابل، ولكن شعوره هذه المرة مختلف، مجرد التفكير في أنه سيكون أبا يجعل بدنه يقشعر، أي اسم سيتركه لابنه، بل أي صورة مهزوزة سيتركها له، رمى السيجارة من يديه وتخلص من الحقنة التي كان يريد أن يأخذها ثم قام من مكانه.

وجد نفسه بعد فترة لا يعلم مداها أمام باب الشقة دون أن ينتبه، يبدو أن رجليه أيضا بدأتا بخيانته ليجد نفسه بمجرد أن يسهو قليلا أمام باب هذه الشقة!

هل يعقل أن يهرب المرء من شيء إليه!، لماذا يشعر بأنه كلما فر منها يعود إليها!، عقله ينهاه بشدة من الوقوع تحت تأثيرها، أي تعلق سيمزقه أكثر، سيوجعه أكثر، ولكن قلبه يحدثه بأن يرتوي من حنانها ودفئها، بأن ينهل من بحر عينيها اللازورديتين الفاتنتين، بأن يسمح لبياض روحها أن يغسل سواد روحه، وهو بينهما ممزق لا يعلم أين المفر.

احـــتـــيـــاج

كانت منشغلة في المطبخ تعد وجبة العشاء ولم تنتبه له عندما دخل الشقة واتجه نحو غرفة النوم، رمى بنفسه بعنف على السرير محاولا تجاهل كل تلك الصور التي كانت تجتاحه دفعة واحدة.

ضحكات عمر البريئة وهمساته، صوته وهو يناديه باسمه المبتور على شفتيه، قائلا "إل" بدلا من "وائل"، تلك اللحظات السرية المسروقة التي كانا يختلسانها في لحظات غفلة من والدتهما، ثم تختفي كل هذه الصور ليجتاحه فجأة صوت أمه وهو يخترق رأسه بعنف ممزقا هذه الذكريات الجميلة قائلا:

- لماذا لست أنت!؟
- لماذا لست أنت؟!

ليغلق عينيه بشدة وهو يقول في وهن:

- ليتني كنت أنا!

ثم صورة عمر التي امتزجت فيها الحقيقة بكوابيسه لتظهر له مشوهة مرعبة، صرخ في ألم وهو يدفن رأسه في الوسادة ويهمس في اختناق:

- لا أستطيع! لا أستطيع!

ثم نهض من فراشه متناولا حقنة هيروين حقنها في ذراعه بسرعة، ثم دس رأسه في الوسادة بألم ليجتاحه عطرها الذي تفوح منه رائحة اللافندر، أخذ يستنشق بقوة محاولا ملء كل ذرة فيه بهذا العطر لعله يطرد رائحة الدم التي كانت تتغلغل في كل مسامه.

احـــتـــيـــاج

ظل مستسلما لدقائق طويلة لهذا العطر الذي اجتاح كيانه وزرقة عينيها اللازورديتين يحتل تفكيره شيئا فشيئا إلى أن اختفت تلك الكوابيس ليغرق في زرقة لا نهائية.

دخلت بعد فترة إلى غرفتها لتتفاجأ به نائما على السرير دافنا رأسه بكل قوة في وسادتها، نظرت إليه في حنو ثم اقتربت منه أكثر لتتأكد من أنه نائم، عدلت من طريقة نومه ثم خلعت عنه حذاءه، واندست أمامه على السرير واقتربت منه لتسمح لأصابعها بأن تدلك رأسه وتعبث بمنابت شعره، ثم بدأت بالكلام:

- يبدو أن القدر الذي سقانا من نفس الكأس أصر أن يكمل ما بدأه ليجمعنا، غريبين ولكن قريبان، يوحدنا ألمنا رغم كل ما يفرقنا، مهما قلنا ومهما أنكرنا فلن يغير هذا الحقيقة أبدا، كلانا منقوص من جهة طفولته، كلانا يبحث عن نفسه، لا يهم من وجد ومن لم يجد، المهم أننا مهما حاولنا لا يمكن أن ننكر حقيقة واحدة هي احتياجنا، تحتاج من يمسك بيدك كما أحتاج أنا، مهما أنكرت ومهما أصريت لن تستطيع تجاهل جوع الطفل الذي بداخلك إلى الحنان، هذا الحنان الذي حرمت منه طفلا لا يمكن أن تتناساه لأن الاحتياج إلى من يملؤه يكبر داخلك شيئا فشيئا، لا أدري إن كنت أستطيع سد جوعك إليه متجاهلة جوعي أنا، ولكني سأحاول وتذكر دوما أني لن أخذلك..

تنهدت بعمق وهي لا تدري لماذا قالت هذا الكلام، ربما لأنها كانت تتمنى يوما أن يقول لها أحد هذا الكلام، وكأنها تقوله لنفسها قبل أن تقوله له، أسندت رأسها إلى رأسه وغفت هي الأخرى.

احـــتـــيـــاج

استيقظت قبله في الصباح لتكتشف أن أصابعها لا تزال عالقة في منابت شعره فواصلت ما بدأته البارحة!

فتح عينيه ببطء ليشعر بأصابعها تعبث بشعره في حنان غريب لم يجربه من قبل، أغمض عينيه مرة أخرى مستسلما لكل هذا الدفء الذي يغمره، رغم صوت عقله الذي نازعه بشدة لينهض مبتعداعن هذه المشاعر المهلكة.

نعم مهلكة! لمساتها مهلكة، نظراتها مهلكة، حتى اهتمامها مهلك، بحة صوتها مهلكة، كل تفصيل فيها مهلك، كان يشعر بالخطر من كل تصرفاتها نحوه، لا يريد أن يتعلق، لا يريد أن يستسلم لهذا الفيض اللانهائي من الحنان الذي تعده به.

لن يدوم! هكذا أنبأه عقله، هي تؤدي واجبا فقط، أو ربما تريده أن يحبها نزولا عند رغبة مدام هدى لا غير.

حاول سحب نفسه ولكن جسده عانده، لم يكن يريد التخلي بسهولة عن كل هذا الدفء، فتح عينيه بحذر فلاقته بحارها اللازوردية، عاد ليغمض عينيه محاولا تفادي هذا السيل من الصفاء المهلك، ثم فتحهما من جديد قائلا في عتاب صارخ:

- لماذا تفعلين هذا؟

ابتسمت في صدق وهي تشعر بضعفه أمامها قائلة:

- أفعل ماذا؟

احـــتـــيـــاج

أغمض عينيه في ألم مرة أخرى قائلا:

- أنت تعلمين ماذا أقصد.

ابتسمت في حنو ولم ترد، فقال بلهجة مزجت اللوم بالتهكم والتي جعلته يبدو تماما كطفل صغير مما دفعها للعطف عليه أكثر:

- تحاولين معالجتي!؟
- لا ..

نظر إليها في تساؤل فأردفت:

- أنا أتدرب على شعور الأمومة.

نظرت إليه في حذر منتظرة ردة فعله التي توقعتها عنيفة بسبب هذه الكلمة فهي لم تعرف ردة فعله عن حملها بعد، ولكنه ابتسم مرغما لإجابتها الغريبة فقالت في دهشة:

- وائل الأحمدي يبتسم!؟

تجمدت ملامحه وحاول رفع نفسه عن السرير فاقتربت منه أكثر تاركة أناملها تنغرس عميقا في شعره، استسلم مرة أخرى لخدره اللذيذ بينما واصلت هي:

- أنت تستفز أمومتي يا وائل، نظراتك تستفزها، حركاتك العصبية تستفزها، حتى غضبك مني يستفزها.

خفض عينيه كي لا يواجهها قائلا:

- هل هذا جزء من مخططك؟

احـــتـــــيـــاج

- مخططي؟
- ألست تنوين جعلي أحبك.

ابتسمت في مرح قائلة:

- وهل يعرف وائل الأحمدي كيف يحب!؟.

صمت هو بينما أردفت هي:

- اطمئن لست أنوي هذا.

رفع عينين حذرتين إليها قائلا:

- وماذا تنوين؟

ردت في عبث:

- يهمك كثيرا أن تعرف؟.

انتبه إلى نفسه وقد تحدث أكثر مما ينبغي، منذ متى كان ينطلق في الحديث هكذا؟ شعر بالخطر يتضاعف فسحب نفسه من بين يديها ليستوي جالسا على السرير، ثم قام من مكانه بعد أن أخذ معه سيجارة متجها نحو الشرفة متجاهلا دقات قلبه العنيفة التي ظنها لسنوات هامدة!

ابتسمت لهذا الانتصار البسيط الذي حققته وهي تقوم من السرير في كسل قائلة:

- سأذهب للمطبخ لأعد الفطور، هل تريد شيئا معينا؟

احـــتـــيـــاج

أغمض عينيه بشدة مغمغما:

- لا أريد شيئا منك فقط دعيني وشأني.

خرجت من الغرفة بينما أخذ هو يلوم نفسه بشدة، كيف سمح لها بالتغلغل في حياته هكذا، كيف استسلم لحاجته إليها.

كيف ترك ضعفه يقوده إلى فراشها وهو الذي أقسم أن لا يشارك أي أنثى فراشا أبدا!، منذ متى احتاج هو القوي الذي نشأ وحده إلى أنثى ضعيفة إلى جانبه.

لماذا لا يهرب بعيدا، لماذا يعود كلما أقسم على الابتعاد، هي الآن حامل أي أن حلم مدام هدى سيتحقق قريبا، لماذا لا يبتعد إذا ويهرب من كل هذا الضياع.

لماذا يجد نفسه يعود إليها دائما وهو يتمنى نقطة واحدة من بحر حنانها الذي تغرق فيه عيناها الواسعتان.

لماذا تفعل هذا، لماذا تجره دون أن تدري إلى مشاعر أقسم أن لا يذوقها قلبه أبدا، مشاعر كفر بها منذ بدأ يدرك ما حوله!

هي تحاول أن تعالجه وهو يعلم هذا ولكنه لن يرضخ أبدا، من اليوم لن يبقى أي شيء كما كان، لن يسمح لها بالاقتراب من أسواره مرة أخرى، سيحاربها بكل ما أوتي من قوة وسيصمد أمام حاجته الكبيرة إليها.

احـــتـــيـــاج

مر أسبوعان منذ ترك البيت دون عودة، سيبتعد عن كل هذا ولن يهتم، ستحصل مدام هدى على حفيدها كما تمنت، ولن يحتاج إليه هذا الطفل في شيء، لديه أم شجاعة وقوية ولن يحتاج إلى أب مهزوز مثله ليكون إلى جانبه، وجوده إلى جانبه سيضره أكثر مما ينفعه، لهذا قرر أن يبتعد حتى لا يؤذي الناس الذين يحبهم أو على الأقل الذين يتقبل وجودهم في حياته، فهو قد نبذ الحب منذ زمن ولن يسمح لنفسه أن يعيشه أبدا.

أما ياسمين فقد أمضت تلك الأيام كعادتها في روتين يومي قاتل، تعد طعاما لن يأكله أحد وتغسل صحونا لم يوسخها أحد، إلا أنها أضافت شيئا إلى روتينها هذا، أصبحت تغزل الثياب لمولودها القادم، ثيابا بألوان محايدة حاليا إلى أن تعرف جنس الجنين على الأقل، رن جرس الباب لأول مرة منذ وطئت قدماها هذه الشقة، استغربت الأمر لا يمكن أن يكون القادم وائل ولا مدام هدى لأن كليهما يمتلكان المفتاح، خفق قلبها بشدة وهي تفكر في والدها، هل يعقل أن يكون والدها هو الطارق؟

لقد اتصلت به قبلها بيوم فقط وأكدت له أنها مسافرة خارج الوطن مع زوجها، من هو الطارق إذا، اقتربت من الباب ونظرت لتتفاجأ به، قصي!

كيف يزورها هنا، وماذا سيكون رد مدام هدى إن عرفت أن خطيبها السابق قد زارها في شقتها، ابتعدت عن الباب بهدوء محاولة التظاهر بعدم وجودها في الشقة ولكن صوته جاءها مشوبا بنبرة غاضبة:

- ياسمين أعلم بأنك هنا، افتحي الباب!

احـــتـــــيـــاج

حافظت على صمتها ليردف:

- ياسمين قلت افتحي وإلا سأجمع كل الجيران.

فكرت في أن الأسلم لها وله أن تفتح الباب لكي تتجنب أي فضيحة، فتحت الباب ببطء فقابلها بوجه غاضب لم تره به من قبل، قال في وعيد:

- لقد كنت مخطئا من البداية لأني استمعت لك ولم أبحث في هذا الأمر.
- ما الأمر قصي ماذا حدث؟
- كيف تتزوجين بسكير مدمن مخدرات دون أن تخبري أحدا، هل جننت؟

حاولت تهدئته ولكنه كان في قمة غضبه فأردف بنبرة أعلى:

- ستحزمين حقائبك الآن وتذهبين معي إلى البيت، وسنحل كل شيء بالقانون!

أجابته في حدة:

- ما هذا الذي تقوله! هل جننت!؟
- نعم جننت، جننت منذ أول يوم سمحت لك فيه بهذا الهراء الذي أخبرتني به، جننت منذ اليوم الذي سمحت لك فيه بتحطيم نفسك بل وساعدتك كالأبله على ذلك!

حاولت تهدئته مرة أخرى ولكنها لم تستطع، سحبها من يدها بقوة قائلا:

- ستجمعين حقائبك الآن وتعودين معي إلى المنزل وأنا سأتكفل بإبلاغ العم محمود.

احـــتـــــيـــاج

قالت محاولة تخليص يدها من يديه:

- قصي إهدأ، هو ليس بذلك السوء الذي تعتقده، اسمعني وسأشرح...

قاطعها في حدة:

- لا أريد أن أسمع شيئا، العم محمود الآن بخير ويستطيع أن يتحمل الخبر، لهذا لن أسمح لك بتدمير نفسك...

أسكتته لكمة قوية تلقاها على وجهه، أفلت يدها وأمسك بوجهه متألما، نظرت ياسمين إلى الشخص الذي كان يقف أمامها ووجهه الآن قد جسد صورة حية للشيطان، شهقت في رعب قائلة:

- وائل!

لم ينظر إليها بل اتجه إلى قصي الذي كان لا يزال يمسك بوجهه قائلا:

- كيف تسمح لنفسك بأن تسحب زوجتي هكذا وفي بيتي.

اعتدل قصي في وقفته، وقال بغضب مماثل:

- ها أنت إذا أيها السكير القذر، ستطلقها الآن وإلا ستندم...

بترت جملته لكمة ثانية فثالثة فرابعة ولم يتوقف عن لكمه حتى صرخت ياسمين وأمسكت بيده ترجوه أن يتوقف، تجمدت يده التي كانت تتعلق بها بشدة وأغمض عينيه بقوة محاولا كبح غضبه.

احـــتـــيـــاج

اتجهت بسرعة إلى قصي الذي كان متكورا على نفسه على الأرض وترجته أن ينهض ويغادر، ولم ترتح حتى دفعته خارج الشقة ثم عادت إلى وائل الذي كان مايزال مغمضا عينيه بشدة ويده ترتجف من شدة تشنجها، اقتربت منه في حذر وهي تتوقع أسوأ ردة فعل، نادته بنبرة مرتعشة:

- وائل!

شد على عينيه أكثر ويده ترتعش بقوة أكبر، كان الغضب يمزقه من الداخل، غضب لم يشعر به من قبل ولا يدري سببه، قبضة فولاذية تعتصر قلبه بلا رحمة، كان يريد خنقهما معا حتى الموت لعل هذا يجعل البراكين المستعرة داخله تهدأ، فتح عينيه لتلتقي بعينيها الخائفتين وهي تقول بصوت مرتعش وقد أرعبتها النيران التي رأتها في عينيه:

- وائل أنا حامل!.

ظل لثوان أسيرا لعينيها الواسعتين ليشعر ببحار الدنيا كلها تنسكب عليه، لينطفئ غضبه شيئا فشيئا وهو يتذكر قولها:

- هو ليس بذلك السوء الذي تعتقده!

هل تراه حقا بنظرة مختلفة، هل ترى شيئا آخر غير الشيطان الذي يراه كلما نظر إلى المرآة!

أشاح بوجهه عنها في عجز واتجه إلى الشرفة وهو يتنفس بقوة محاولا منع نفسه من العودة إليها وخنقها بيديه، كيف تدخل رجلا غريبا إلى شقته!

احـــتـــيـــاج

غريب!، يبدو أنه أقرب إليها منه، لهفتها عليه وصرختها الجزعة التي مزقت قلبه والتي لا يزال صداها يتردد في أذنيه، كل هذا يدل على أنه شخص قريب منها أكثر مما يتصور، أغمض عينيه بقوة وهو يتجنب التفكير أكثر، لماذا يشعر بهذا الانقباض كلما فكر في طبيعة العلاقة التي تجمعهما، هل يغار!؟

حرك رأسه بشدة محاولا طرد هذه الأفكار من رأسه ولكن عقله كان مصرا على أن يعذبه أكثر، خاطبه عقله في استهزاء:

- ماذا كنت تتوقع، أن تحبك أنت وتتركه هو؟ من أنت ؟ هل نظرت إلى نفسك في المرآة من قبل؟ منذ متى تكافئ السماء الشياطين بالملائكة؟

توجه إلى المرآة ونظر إلى نفسه، والصوت الهازئ مازال مصرا على جلده:

- هل رأيت؟ أنت مجرد شيطان حتى أمه نفرت منه، آذى كل من حوله حتى الشخص الوحيد الذي أحبه.

دخلت إلى الغرفة ونظرت إليه بإشفاق وهي تدرك مالذي يدور في ذهنه الآن، اقتربت منه في وجل وأحاطت خصره بذراعيها مريحة رأسها على ظهرهوهي تقول:

- لم يكن هناك بد من إدخاله، لقد هدد بأن يجمع علي الجيران، صدقني لم أكن أريد لكل هذا أن يحدث!.

احـــتـــــيـــــاج

شعر بالقبضة الحديدية تعتصر قلبه أكثر فابتعد عنها في عنف لم يقصده لتفقد توازنها وتسقط على الأرض، غادرت حلقها أنة ألم أفلتت منها غصبا عنها فانتبه إليها وانحنى ليرفعها عن الأرض قائلا بنبرة خشنة خرجت على غير ما أرادها:

- هل أنت بخير؟

أومأت برأسها في ألم فساعدها إلى أن استلقت على السرير قائلا بنبرة لينة:

- أنا آسف لم أكن أقصد.

ردت في حذر:

- صدقني كل شيء حدث فجأة ولم أكن أعلم بشيء، كما أني لم أخبر أحداً عن طبيعة زواجنا، ولا أعلم من أين عرف بالأمر، أنا آسف...

قاطعها مشيحا بوجهه عن نظراتها البريئة:

- من كان؟

أجابت في حذر:

- خطيبي السابق.

ثم أردفت في نبرة أشد حذرا:

- صدقني لم نلتقي أبدا منذ زواجنا ولا أعلم كيف عرف العنوان، لم أكن أريد الذهاب معه صدقني...

احـــتـــيـــاج

قاطعها بصوت خشن:

- لا بأس ولكن لن يتكرر هذا الأمر مرة أخرى.

زفرت في ارتياح ثم ردت:

- أقسم لك أنه لن يتكرر مرة أخرى.

أبتعد عنها قائلا:

- سأتركك الآن لترتاحي قليلا، لا أريد أن تعرف مدام هدى بما حدث، لا داعي لأن تخبريها.

تنهدت في ارتياح وأسندت رأسها على الوسادة لتحاول النوم ولكن عقلها لم يتوقف عن التفكيرا أبدا، ماذا لو تهور قصي وأخبر والدها ماذا ستكون ردة فعله، ربما لو حدث هذا قبل شهر لشكرت القدر على نعمته، ولكنها الآن بعد أن لمست عجز وائل وحاجته لم تعد ترغب في أن تتركه، شيء ما فيه يسحبها سحبا نحوه، هي لا تريد أن تتخلى عنه وتريد أن تبقى معه، ولن تيأس حتى تساعده مهما كلفها هذا.

احـــتـــيـــاج

ارتمى على الأريكة وهو يفكر في قولها:

- خطيبي السابق.

الأمر كما توقع تماما إذا، هي تحبه حتى وإن حاولت الإنكار، نبرة صوتها الخائفة فضحت مشاعرها نحوه، ماذا كان ينتظر منها، لم يكن لها ذنب في كل ما حدث، كانت تعيش حياتها كأي امرأة عادية إلى أن حرمتها منها مدام هدى كما حرمته هو الآخر من طفولة سوية كسائر الأطفال، وضع يده على صدره متحسسا نبضات قلبه الثائرة، هذه أول مرة ينبض فيها قلبه بهذه القوة، لم تكن لديه خبرة بهذه المشاعر الوليدة التي استشعرها لأول مرة في حياته، لم يكن يعرف ماذا يريد ولا ماذا سيفعل، شيء واحد فقط كان متأكدا منه هذه اللحظات هو أنه لم يكن يريد أن تكون لغيره أبدا!

كان يريد العودة إلى البيت لأخذ بعض المحاقن التي تركها في درج الكومود عندما تفاجأ بهذا الغريب في بيته، ولكنه لم يعد يريد شيئا الآن، لم يعد يريد إلا أن يتخلص من ضياعه في هذه المشاعر المضطربة التي تجتاحه مؤخرا.

شيئا فشيئا بدأ تدفق الأدرينالين ينحصر في دمه، ليشعر بارتعاشات تجتاح جسده وألم يغزو كل جزء في جسده، شعر برغبة ملحة في المخدر ولكنه حاول تجاهلها، أغمض عينيه في وهن محاولا تجاهل هذه الرغبة التي تشتعل شيئا فشيئا، أخذت صرخات مختلطة تجتاح رأسه دون رحمة، في البدء كانت على شكل همهمات غير مفهومة ثم بدأت تتضح بالتدريج:

- وائل احملني!.
- لقد قتلته، قتلت أخاك.
- لماذا لست انت، لست أنت أنت أنت أنت...

احـــتـــيـــاج

- أنا أحبك "إل"..
- أكرهك، أكرهك، أنت شيطان... شيطان...

صرخ في عجز وهو يضغط على رأسه ثم أذنيه محاولا تجاهل هذه الأصوات، ولكن عقله تمادى في تعذيبه ليبدأ بعرض صور مشوهة لعمر والصرخات تشتد أكثر وأكثر، قام من مكانه متجها إلى الغرفة ثم إلى درج الكومود، ولكن يده توقفت قبل أن تصل إلى مبتغاها وهو يتأمل سيل البراءة الذي يحيط وجهها بهالة ملائكية تزداد وهجا عندما تكون نائمة ليجد نفسه دون أن يعي مسحوبا نحو هذه الهالة.

لحظات من التردد ثم ودون سابق إنذار وجد نفسه مستلقيا بجوارها، امتدت يداه إليها في تردد قبل أن يجد نفسه يسحبها إلى صدره بكل قوة وكأنه يستنجد بقوتها لعله يستمد منها ما يحارب به ضعفه، انتفضت بين يديه في رعب، ولكنه ضمها إلى صدره أكثر قائلا بصوت ضعيف مهزوز:

- أرجوكِ لا تفعلي شيئا، فقط...

ليردف بنبرة تعري حاجته الشديدة إليها:

- ضميني...

تجمدت لثوان حتى استعادت وعيها وفهمت ما يجري حولها، ثم لفت يديها حوله هي الأخرى وضمته إلى صدرها كأم أخذت طفلها بين ذراعيها بعد طول فراق.

احـــتـــيـــاج

كانت أنفاسه تزداد حتى تكاد تمزق صدره، ومع كل نفس كان يضمها إليه أكثر وكأنه يريد أن يزرعها داخل ضلوعه، أغمضت عينيها بشدة متجاهلة الألم الذي تشعر به جراء ضمته التي تكاد تكسر ضلوعها، سحب يديه بعد فترة ليضعهما على رأسه ثم على أذنيه ضاغطا عليهما بشدة ضمته إليها بقوة أكبر وهي تعلم أنه يصارع ذكرياته الآن.

كانت أنفاسه تتلاحق حتى يكاد يلهث، والعرق يتصبب من كل نقطة في جسده، عاد ليسحبها إليه وكأنه يستجدي منها الحماية من هذه الكوابيس، قال في صوت شبه مختنق:

- حسنا لا تصمتي أرجوك، قولي شيئا، أي شيء، اجعلي كل هذه الأصوات تصمت.

حررت إحدى يديها لتداعب بها خصلات شعره في حنان ارتعش له جسده، وبدأت بالكلام:

- في بيت بسيط ولكنه جميل، تتوسطه عريشة خضراء ونافورة صغيرة، كانت تعيش عائلة مكونة من طفلة صغيرة ذات جدائل سوداء مزينة وعينين زرقاوين واسعتين، وأم حنون طيبة وأب يعود آخر النهار يحمل في يديه حلوى وعلى شفتيه ابتسامة.

كانت العائلة تعيش في سعادة وهناء، وكانت البنت أسعد ما يكون الأطفال، تقضي نهارها لعبا بين الحقول الجميلة، حقول خضراء واسعة يبدو وكأنه لا نهاية لها، تقطف أزهار الاقحوان في فرح، تغني وكأنها تريد أن تشارك العصافير زقزقتها، ترى في صفحة النهر الرقراق وجهها صافيا جميلا تزينه ابتسامتها التي لم تفارق وجهها منذ وعت على الدنيا.

احـــتـــيـــاج

شعرت بذراعيه ترتخيان بعض الشيء فواصلت:

- عادت البنت ذات يوم فوجدت شخصا رابعا في بيتهم، امرأة جميلة رشيقة لم يرتح قلبها لها أبدا، كانت هذه المرأة تستجدي الأمان وضيق الحال، تلقتها هذه العائلة في حنان غافلين عن كل هذا الشر الذي كانت تنذر به عيناها، كانت هي فقط من تراه وكأنها اختصتها به دون غيرها، حاولت البنت مع أمها لتتخلى عن هذه الدخيلة ولكن الأم بحسن نيتها نهت ابنتها عن مثل هذه الأفعال وذكرتها بمساعدة الملهوف، تقبلت البنت الأمر على مضض ولم يكن أحد ليلاحظ ما كانت تلاحظه هي، كانت ترى ببراءتها خضرة المروج تبهت، وزرقة الأنهار تخفت، وزقزقة العصافير تصمت، كانت ترى السواد وهو يقتحم عالمها الجميل دون أن تستطيع تحريك ساكن!

مرت الأيام والمشاكل تكبر في ذلك البيت الذي لم يعرف يوما غير الهناء ولا أحد يعرف سببا لهذه المشاكل غيرها، أصبح والدها الذي لا ينام إلا ويدا زوجته تداعب منابت شعره ينام معطيا لها ظهره، حتى جاء ذلك اليوم المشؤوم الذي لم تستطع نسيانه أبدا.

ارتجف جسدها رغما عنها فضمها إليه أكثر وكأنه يطمئنها لتكمل:

- استيقظت صباحا على صراخ والدها الذي لم يعل هكذا في حياته كلها، نزلت إلى أسفل مرعوبة لتفاجأ بأمها ملقاة على الأرض بثياب نوم خليعة لم تسبق أن رأتها ترتدي مثلها، كانت الدموع تنساب من عينيها بينما والدها يصرخ فيها قائلا :
- كيف سولت لك نفسك هذا بعد كل هذه السنوات يا مريم!

احـــتـــيـــاج

أما هي فكانت تقول بين شهقاتها:

- والله مازلت كما كنت دائما، على العهد يا عبد الله.

ولكنه أشاح بوجهه عنها لتقع عيناه على البنت الصغيرة، طلب من تلك الدخيلة أن تأخذها معها إلى الغرفة وتغلق الباب، سحبتها بقوة بينما كانت البنت تصرخ بكل قوتها محاولة تخليص نفسها منها، كانت تريد أن تعود إلى أمها لتحتضنها علها تمنع ارتجافاتها وتمسح عنها سيل دموعها، وأرادت أن تصرخ في وجه أبيها وتذكره بكل أفضال أمها عليه، أن تذكره بحنانها وإخلاصها ولكنها سحبتها بعنف إلى الغرفة ثم ألقت بها على السرير في قرف، وأغلقت الباب لتقول بنبرة تشف:

- مجرد عاهرة حقيرة مثل والدتك.

أرادت البنت الرد والانتفاض ولكن نظرة واحدة من عيني هذه الساحرة الشريرة جعلت الرعب يدب في أوصالها، فاكتفت بضم ركبتيها إليها لتنخرط في بكاء مرير.

ازدادت ارتجافتها هذه المرة فشدها إلى ضلوعه أكثر هامسا في حنان اختلط ببعض الألم:

- لا تكملي إن كان هذا يؤذيك.

احـــتـــيـــاج

ولكن يبدو أنها لم تكن تسمعه وهي غارقة في أوجاع الماضي، أوجاع ظنت أنها تخلصت منها، ولكنها عادت لتجثم على صدرها من جديد:

- لم تخرج البنت من الغرفة حتى سمعت طرقات والدها على الباب، قامت تلك المرأة الشريرة لتفتح الباب فدخل إلى الغرفة متجها إلى ابنته التي ماتزال متكورة في نفس الوضع، قائلا في صوت مهزوز ضعيف:
- ستتنسين بأن لك أما تدعى مريم!

انتفضت البنت في رعب، وحاولت التشبث بنظرات أبيها لعلها تلتقط أثرا لمزاح أو أي شيء آخر، ولكن عينيه كانتا حازمتين، غريبتين عنها كأن لم تعرفهما أبدا، مرت الأيام وكان كل يوم يمر يزداد والدها بعدا عنها، أما هي فقد توقفت عن الطعام وهجرت اللعب، لم تعد تغني لتضاهي زقزقة العصافير، ولم تعد تريد أن ترى وجهها الشاحب النحيل في مياه النهر الصافية، حتى شعرها لم يكن هناك من يجدله لها فتركته مهملا.

استيقظت ذات يوم على جلبة تملأ البيت فقامت لترى ما الأمر طمعا منها في أن تكون والدتها قد رجعت ولكنها اصطدمت بالحقيقة التي كانت تخاف منها منذ البداية، كان ذلك اليوم هو يوم زفاف والدها من تلك المرأة الشريرة، كانت المرأة ترتدي فستان زفاف أبيض وتمشي في البيت في مرح، صرخت البنت صرخة عظيمة وفقدت وعيها.

احـــتـــيـــاج

استيقظت بعد مدة لتجد أمها إلى جانبها، لم تصدق في البداية فأغمضت عينيها بشدة ثم فتحتهما من جديد وهي تدعو الله أن لا يكون حلما.

أخبرتها أمها أنها في المستشفى وأنها جاءت لزيارتها خفية، وطلبت منها أن تكتم الأمر، ثم أخبرتها أنها وقعت ضحية لمكر تلك المرأة الشريرة وحذرتها كثيرا منها و من معاندتها.

أصبحت البنت ترى أمها خفية في أماكن مختلفة وعلى فترات متباعدة، وشيئا فشيئا بدأت تتمسك بالحياة من جديد، وعلمتها أمها كيف تستطيع العيش وسط كل المشاكل والعقبات التي تحيط بها بالإيمان.

وتمسكت البنت بالإيمان كما طلبت منها أمها لتكتشف أنها يمكن أن تكون أقوى، كانت قوتها تكبر داخلها شيئا فشيئا، إلى أن أصبحت تستطيع النهوض وحدها إن وقعت، أصبحت تجدل شعرها بيديها ولم تعد تحتاج لأحد في ذلك.

استغربت زوجة الأب الشريرة هذا التغير الذي طرأ عليها وبدأت بتعقب تحركاتها لتكتشف سرها الصغير الذي استكثرته عليها لتحرمها من مصدر قوتها الوحيد، غادرت أمها الدنيا ذات صباح حزين إثر حادث سيارة ولكن البنت رغم حزنها لم تنكسر هذه المرة، بل ظلت واقفة ولم تهدأ حتى فضحت هذه المرأة وأنقذت والدها منها...

اختنقت كلماتها معلنة عدم قدرتها على المواصلة، أدرك هذا فرفع عينيه إلى عينيها الزرقاوين اللتين اكتستهما مسحة حزينة وكأنها سماء زرقاء صافية لبدتها بعض الغيوم المنذرة بأمطار وشيكة!، تاه للحظات في سحر عينيها ثم أمسك وجهها بين راحتيه وضمه إلى صدره قائلا:

احـــتـــيـــاج

- لم أكن أتصور أن الأمر كان مؤلما إلى هذا الحد، أنا آسف.

ثم أردف في حشرجة:

- رحمها الله.
- آمين.

قالتها وهي تضغط برأسها على صدره وكأنها تريد أن تفرغ كل همومها فيه، تذكرت وجعه هو الآخر، ليمر ببالها مثل مصري يعبر عن حالتهما الآن "التم المتعوس على خايب الرجا"، ترى من منهما عليه أن يساعد الآخر، بل من منهما قادر على أن ينتشل الآخر، كلاهما منقوص، كلاهما يحتاج للآخر فهل يتمخض الضعف ليلد القوة!

ظلت لثوان ساكنة تحاول استرجاع ثباتها، ثم أخذت نفسا عميقا ورفعت رأسها إليه قائلة بحنان:

- دعك مني الآن وأخبرني كيف حالك أنت؟

ظل لثوان أسيرا لسهامها اللازوردية التي يشعر بها تطفئ كل نيرانه المستعرة داخله، لثوان أراد أن يستسلم لها، أن يستجيب لنداء الأمان الذي تعرضه عيناها بسخاء، ولكنه انتشل نفسه منها بصعوبة رافضا الاستسلام لمثل هذه العواطف التي كان عقله كافرا بها بينما كان قلبه يستجديه أن ينهل منها ما استطاع!

انتصر نداء عقله فاستلقى على السرير معطيا لها ظهره، ضاما قبضته بيديه بكل ما أوتي من قوة، ظلت ترمقه في حنان ضاعفته ذكريات طفولتها التي كانت تشدها نحوه شدا وهي تراه الآن أسيرا لذكرياته ذبيحا بها مثلها تماما،

احـــتـــيـــاج

اقتربت منه في حنو وأخذت تمسد على ظهره محاولة تهدئة هذه التشنجات التي كانت تجتاح جسده رغم عنه بسبب تأخره عن تعاطي المخدر.

ازدادت ارتجافات جسده تحت لمسات يديها الحانية فقاوم رغبة عنيفة في الاستدارة إليها وضمها إليه حتى تختلف ضلوعها لعله يخفف بها هذه النيران المستعرة داخله، ولكنه رفع جسده عن السرير في محاولة منه للهروب من حصارها مقاوما انهياره الوشيك بين يديها، كان يرفض بكل خلية في عقله استلامه لها، خائفا من أن يذوق الحنان ثم يفقده مرة ثانية، خائفا لأنه يعلم جيدا أن الذي يأخذ بسخاء لا بد أن يعطي بسخاء مثله، وأنى لمثله أن يعطي شيئا وهو لا يملكه من الأساس!

شعر بيديها تحيطانه من الخلف بقوة في محاولة منها لمنعه من الابتعاد، لأنها كانت تعلم أنه قلما يكون في حالة الضعف هذه، وهي ستحاول بكل ما أوتيت من قوة استغلال هذا الضعف حتى آخر دقيقة.

خانه جسده وقبله قلبه، لم يستطع مقاومة دفء أحضانها فاستكان بينما عرفت أناملها طريقها لشعره مرة أخرى وهي تعلم جيدا تأثير هذه الحركة عليه، قائلة في حنان أذاب آخر حصونه:

- تحتاجني كما أحتاجك، كلانا على ضعفه خلق ليكمل الآخر!

ارتاحت لاستكانة جسده وتوقفه عن المقاومة فواصلت ويداها تداعبان خصلاته المشعثة:

- كنت أظن أن الماضي يموت بمجرد أن نهيل عليه تراب النسيان، كنت أظن بأني سأشفى منه بمجرد أن أدفنه خلفي وأسير في طريقي متناسية

احـــتـــيـــاج

إياه ولكني كنت مخطئة، الماضي لا يموت، ونحن بإهالتنا التراب فوقه نساهم في إبقاء جمره مشتعلا لأطول فترة ممكنة، لنفاجأ بذكرياته محرقة كأن لم تخمد يوما!

واصلت وهي تشعر بجسده يتراخى شيئا فشيئا:

- الماضي لن يموت، ولن نستطيع أن نعيش دون أن نمحو آخر ذكرى له من عقولنا، ولن يكون هذا بالهروب منه بأي طريقة كانت.

عاد جسده لينقبض وهو يشعر بكلماتها موجهة له، وكأنها تعري كل مشاعره أمامها، كانت تقرؤه ككتاب مفتوح مجيدة لمس نقاط ضعفه بكل مهارة، واصلت وهي تتغلغل بأصابعها أكثر بين خصلات شعره:

- أيا كان هذا الماضي، سواءً أكان ظلما طالنا أم ذنبا اقترفناه بقصد أو دون قصد منا، علينا أن نواجهه، أن نقف في وجهه لا أن نعطيه ظهورنا.

ازدادت تشنجات جسده فضمته إليها أكثر وهي تقول:

- لن نستطيع مواجهة هذا الماضي قبل أن نسامح، المسامحة أحسن علاج للإنسان.

قال بصوت مخنوق:

- وأنت هل استطعت مسامحتها؟

قالت في حنان:

- ليست المشكلة في شخص بعينه، عليك أن تسامح الكل، أنا سامحتها وسامحت أبي قبلها، وقبلهما سامحت نفسي.

احـــتـــيـــاج

شعرت بجسده ينقبض أكثر تحت وقع كلماتها فقالت وأصابعها تواصل التغلغل في منابت شعره:

- أنت بحقدك تستمر بتغذية ذلك المارد الغاضب الناقم داخلك، ولن يلبث هذا المارد أن يبتلعك أنت قبل أي أحد.

قبل أن تفكر في مسامحة أي أحد تذكر دائما أنه عليك أن تسامح نفسك أولا...

انتفض واقفا قبل أن تكمل هذه العبارة ثم خرج من الشقة بأكملها ورأسه يكاد يحترق، يسامح نفسه؟ كيف يسامح نفسه وصورة عمر بين عينيه لا تكاد تفارقه!

كيف يسامح نفسه بعد أن آذى الشخص الوحيد الذي أحبه بصدق في هذه الحياة، لقد كان يعود إلى المقاومة -بعد أن يكون قد قرر الركون للاستسلام- بمجرد نظرة إلى عينيه الزمرديتين الصافيتين.

كيف سيسامح نفسه!؟ كيف سينسى عظم ذنبه وهو لا يكاد يفارقه حتى في كوابيسه!.

احـــتـــــيـــاج

لم تكن نادمة ولم تشعر بأنها قد تسرعت كعادتها، لقد كانت اللحظة المناسبة لقول كل هذا، وهي تعلم بأن كلامها لن يضيع هباءً، لقد أصبحت تحفظه رغم الفترة القصيرة التي قضتها معه، وتعلم بأن له قلبا حيا رغم زعمه بأنه ميت، وتعلم الآن أنه هش جدا رغم محاولته إحاطة نفسه بتلك القشرة الصلبة الباردة، لهذا قررت أن تنتظره وهي تعلم بأنه سيعود، سيعود طالبا المزيد من حنانها وستمنحه هي له دون قيود أو شروط!.

كان الجو باردا في الخارج ولم يكن يرتدي إلا قميصا صيفيا ولكنه تجاهل كل هذا البرد وارتعاشات جسده التي زادت بسبب تأخره في أخذ حقنة الهيروين، ولكنه سيقاوم، لأول مرة منذ بدأ بتعاطي هذه العقاقير يشعر بنفسه يكرهها ولا يريدها، يشعر بأنه يريد أن يكون سويا، لا يدري لماذا الآن بالتحديد.

ربما بسبب كلامها الذي لامس قلبه غصبا عنه، وربما بسبب نقائها الذي جعله يكره سواد إثمه، وربما لأنه قارن نفسه بخطيبها السابق، رجل سوي لا يعيبه شيء، أوربما لكل هذا، لم يعد يفهم نفسه مؤخرا، وجودها في حياته خلط كل أوراقه، هو الذي ظن بأن قلبه مات اكتشف بأن قلبه يمكن أن يخفق وبجنون أيضا، هو الذي ظن بأنه زهد كل النساء، يجد روحه تتلهف لمجرد لمسة حنان من يدها، كان يشعر بها وقد حشرته في قفص، يعيش منذ دخلت حياته في مد وجزر، يحترق إن اقترب منها ويحترق إن ابتعد أيضا، فأين المفر!؟

احـــتـــيـــاج

هل يكفي أن يكره المرء شيئا ليقلع عنه؟

طبعا لا يكفي لابد من عزيمة وإرادة، لابد من قدرة على التحمل، وهذا ما لم يكن قادرا عليه، خاصة مع كوابيسه وتلك الأصوات والصور التي تهاجمه بضراوة ما إن يتأخر عن جرعته، أمضى ليلته يجوب الشوارع محاولا بكل ما أوتي من قوة تجاهل رغبة جسده الشديدة للمخدر، شعر بالبرد تارة وارتفعت حرارته حتى تعرق تارة أخرى، ارتجف كثيرا وتقيأ أكثر من مرة، كانت كل ذرة في جسده تتمزق، أما رأسه فكان يكاد ينفجر من تلك الأصوات التي تجلده بلا رحمة:

- أنت قاتل...قاتل...قاتل.
- أنا أكرهك.
- لقد قتلته.
- شيطان.
- لا تستحق أن تعيش.
- لماذا لست أنت.
- أكرهك.. أكرهك.

كانت أسوأ ليلة يعيشها منذ زمن، كان منزويا في زاوية في إحدى الشوارع منكمشا على نفسه وهو يضغط بيديه على رأسه بكل قوته وهو يصرخ:

- اصمتوا.. توقفوا .. يكفي.. يكفي..

ولكن الأصوات كانت تتعالى أكثر:

- شيطان..شيطان..

احـــتـــيـــاج

- أكرهك..ليتك تموت..
- قتلته..قتلته..قاتل..قاتل..

نهض بسرعة متجها إلى الشقة، سيأخذ تلك الحقنة اللعينة ويخلص نفسه من ذلك العذاب، لايريد أن يكون شيئا، فقط يريد أن يرتاح من هذا الجحيم، دخل إلى الشقة واتجه إلى الغرفة وعندما فتح الباب لمحها في زاوية الغرفة بجوار مصباح صغير مشتعل، كانت جالسة على سجادة وتقرأ بصوت رخيم جعله يتوقف ليستمع رغما عنه:

((يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون (18) ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون (19) لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون (20) لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون (21) هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم (22) هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون (23) هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم (24))

وكأن سطلا من الماء البارد قد صب على رأسه، للحظة نسي إدمانه وكل هذه الآلام التي تعتصر جسده، نسي كل تلك الأصوات التي كانت تحرق رأسه، ووقف مذهولا يستمع، شعر بروحه تغسل تحت وطء هذه الكلمات الثقيلة، ما أكبر هذا الكلام وما أثقله على روحه الآثمة، لطالما عاش حياته

احـــتـــيـــاج

مغيبا ناسيا هذا الجانب من حياته، ولكن هل سيقبل الله شيطانا مثله، إلى أين سيهرب بروحه الآثمة ومن ذا الذي سيتقبلها!

انتبهت بعد فترة إليه لتجده جاثيا على ركبتيه يحتضن رأسه بين يديه، اقتربت منه قائلة في همس:

- وائل هل أنت بخير؟.

لم يجبها فأعادت عليه السؤال وهي تضرب على خده برفق:

- وائل هل أنت بخير؟

لم يرد عليها هذه المرة أيضا، فاقتربت منه أكثر وأخذته بين ذراعيها وهي تشفق عليه من هذه الحال التي آل إليها، هي تعلم أنه يتصارع مع نفسه وذكرياته وإدمانه، يقاتل على عدة جبهات دون راحة، ضمته إلى صدرها بقوة وهي تهمس:

- ستكون بخير.

انتبه إلى وضعه بعد فترة فحاول سحب نفسه ولكنها ضمته إليها أكثر وهي تكرر:

- ستكون بخير.. ستكون بخير..

دفعها عنه دون قصد وهو يهتف بعنف:

- شيطان..شيطان..

احـــتـــيـــاج

نظرت إليه في ذهول قبل أن تستوعب ما كان يقصده، لتقول وهي تضمه إليها من جديد:

- بل إنسان ضال تائه يبحث عن الطريق.

قال في حشرجة وهو يبعدها عنه:

- شيطان.. قاتل..

أمسكت وجهه بين راحتيها وهي تردد:

- بل إنسان خطاء، وخير الخطائين التوابون.

أزاح يديها عن وجهه وهو يقول:

- الشياطين لا تعرف التوبة..

دمعت عيناها في تأثر وهي تقول:

- أنت لست شيطانا، الشيطان لا يعترف بذنبه.

قال في حشرجة:

- أنا أراه كلما نظرت في المرآة، شيطان آثم.

اقتربت منه في حذر وهي تقرأ:

((قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم))

أبتعد عنها كالملسوع وهو يردد:

- لن يقبل روحي الآثمة، لا أستحق المغفرة.

احـــتـــيـــاج

أمسكت بيديه الباردتين بين يديها وهي تقول:

- لا يوجد إنسان لا يخطئ، واعترافك بالذنب أول خطوات التوبة، الشيطان لا يعترف بذنبه، أنت لست شيطانا بل إنسان ضل طريقه.

سحب يديه في عنف قائلا:

- قتلته، لن يغفر لي، لن يقبل.

اقتربت منه ووضعت يدها على قلبه، مرددة في صوت عذب رخيم ((والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون)).

ثم واصلت في رفق:

- يجب أن ترى نفسك من اليوم فصاعدا في مرآة جديدة، كل مراياك كاذبة، كلها لا ترى حقيقتك، تراك كما تريدها أنت أن تراك، كما ترى أنت نفسك.

ردد في حيرة:

- مرآة جديدة؟

أومأت برأسها قائلة:

- أنا هي مرآتك من اليوم فصاعدا لن ترى نفسك إلا في عيني، سترى نفسك كما أراك..

نظر إليها في حيرة قائلا:

- كيف أبدو في مرآتك؟

احـــتـــيـــاج

ابتسمت في حنان قائلة:

- طفل ضائع تائه يبحث عن طريقه.

ردد في حيرة:

- طفل؟

اقتربت منه والتقطت يديه بين يديها مرة ثانية قائلة:

- نعم طفل، طفل يستجدي الأمان، يشعر بالبرد فلا يجد حضنا يدفئه، خائف فلا يجد يدا تنتشله، أنا أراه، أرى ذلك الطفل كلما نظرت في عينيك.

شعر بالخجل لأنه كان شفافا لهذه الدرجة أمامها ولكنه لم يحرك ساكنا، كان متعبا من كل شيء، متعبا من الهروب، متعبا من ادعاء الصلابة، متعبا من مقاومتها، استغلت ضعفه لتكمل:

- ساعدني لأنتشل ذلك الطفل، أنت لن تستطيع أن ترتاح قبل أن تساعده!

ردد خلفها :

- أساعدك؟

أمسكت يده بكلتا يديها ثم بدأت تعد على أصابعه:

- أولاً ستتوقف عن الهرب مني.

أشاح بوجهه وهو يشعر بالارتباك كطفل صغير يتعرض للتوبيخ من أمه، أما هي فواصلت:

- ثانياً ستتوقف عن تعاطي هذه السموم.

احـــتـــيـــاج

ارتجفت يده لا إراديا فضغطت عليها بكلتا يديها وهي تقول في حنان:

- سأكون معك لا تقلق.

صمتت لثوان تنتظر ردة فعله وهي ترجو الله أن لا يهرب بعيدا كما عودها، ولكنه خالف توقعاتها وقال بتوجس:

- وثالثاً..

ابتسمت في براءة وأكملت:

- ثالثاً سنعرضك على طبيب ليساعدك على تخطي هذه المرحلة.

ثم أردفت وهي تشد على يده مخافة أن يسحبها:

- سأكون معك، ولن يتعدى دور الطبيب كونه موجها.

ثم أردفت وكأنها تقرأ مخاوفه:

- لا مصحة، كل شيء سيكون هنا في شقتنا.

اطمأن قلبه لكلامها رغم أن جزءًا من عقله كان يرجوه أن يهرب بعيداً، ولكنه لم يكن راغبا بأي شكل كان الابتعاد عن هذه الراحة التي يستشعرها الآن، عادت لتشد على أصابعه قائلة:

- رابعاً ستصلي!

سحب يده بسرعة ثم قام من مكانه قائلا في حدة:

- لا..

احـــتـــيـــاج

قامت إليه واحتضنته من الخلف قائلة:

- لماذا؟.

قال في غمغمة:

- لا أستحق..

تنهدت في عجز قائلة:

- وائل ماذا كنت أقول منذ قليل، إن الله يغفر الذنوب جميعا، والتوبة تمحو كل ما قبلها من ذنوب.
- ولكني قا..

قاطعته في إصرار:

- جميع الذنوب، جميعها دون استثناء يا وائل.
- لن يقبلني أنا...
- صدقني لو كان سيرفض توبتك ما ألهمك إياها.

صمت لثوان حسبتها دهرا ثم قال:

- حسنا..

ضمته إلى صدرها أكثر وأراحت رأسها على ظهره فضم يديها إلى صدره بقوة، بعد دقائق طويلة قالت:

- سنبدأ من الآن..

احـــتـــيـــاج

توضأ ثم صلى ركعتين كما طلبت منه، كان يشعر بالغرابة، صحيح أن ارتعاشات جسده اشتدت أكثر وشعوره بالصداع ازداد، ولكن تلك الأصوات التي كانت تصرخ بلا رحمة في رأسه هدأت، انتبهت إلى سهوه فاقتربت منه وجلست أمامه على السجادة ومسحت بكفها على خده قائلة:

- كيف تشعر الآن.

انتشله صوتها العذب من سهوه ليقول في ارتباك وهو يضغط يدها بين يديه:

- ما أنت؟!

قالت بنبرة حانية:

- أنت متعب الآن ستنام قليلا وغدا نبدأ العلاج.

شد على يديها أكثر في قلق شعرت به، فرفعت يدها الأخرى وربتت بها على خده قائلة:

- ستكون بخير وستكون أحسن صدقني.

كان يشعر بالخوف من أن يختفي كل هذا الأمان الذي يشعر به ليجد نفسه يواجه كوابيسه كالليلة السابقة، أمسكته من يده ورفعته معها ثم سحبته إلى السرير قائلة:

- استلق الآن، الوقت ما يزال باكرا وستستطيع النوم بضعة سويعات قبل أن يحين الوقت.

نظر إليها في شرود قائلا:

- أنام!.

احـــتـــيـــاج

وكأنما شعرت بهواجسه فابتسمت في حنو قائلة:

- حتى إن لم يكن نوما، فقط استلق لتريح جسدك المتعب.

استلقى على السرير وارتجافات جسده تزداد أكثر، والحرارة تحرق جسده، مسد صدغيه في ألم لم يستطع اخفاءه فاستلقت إلى جانبه ومدت يديها لتمسد صدغيه، ثم جبينه ورأسه حتى شعرت بجسده يرتخي بعض الشيء، ليأتيها صوته ضعيفا مهزوزا:

- احك، قولي أي شيء!.

بدأت بالكلام عن أحداث معينة حدثت معها في حياتها محاولة تشتيت تركيزه وإبعاده عن التفكير في المخدر، لتشعر بعد فترة بارتجافات جسده تتوقف وأنفاسه تنتظم فعدلت من نومه وغطته ثم وضعت رأسها على صدره تستمع إلى دقات قلبه الرتيبة وشعور لذيذ يجتاحها لم تجد له اسما، ظلت على هذه الحال لدقائق طويلة إلى أن غلبها النوم.

استيقظ بعد ساعات ليجدها نائمة على صدره وشعرها الأسود الغزير يحيط بها ويغرق صدره، كانت رائحة الليمون تنبعث منعشة منه، تنشق بعمق وكأنه يريد تخزين كل شيء يتعلق بها في عقله، تمنى أن يظل هكذا للأبد، أن تظل على صدره ولا تبتعد عنه أبدا، بعد لحظات بدأ يشعر بالحرارة تغزو كل جسده، وشعر برغبة شديدة في حك جسمه الذي بدأ بالتشنج، وعاد الصداع ليعتصر رأسه من جديد، انفلتت منه أنة سمعتها ففتحت عينيها في ذعر ودنت بوجهها من وجهه قائلة:

- وائل، ماذا بك؟

احـــتـــيـــاج

كان يتنفس بقوة وهو يشعر بالألم يغزو كل جسده، فقال بجهد:

- بخير.

قامت من مكانها مفزوعة، ثم نظرت إلى الساعة وقالت:

- علينا أن نذهب الآن، سأساعدك على تغيير ثيابك.

اتجهت إلى غرفة الملابس وأحضرت له بعض الثياب لبسها بعد جهد جهيد، ثم غيرت هي ثيابها واستقلا سيارة أجرة متجهين إلى عيادة متخصصة في معالجة الإدمان.

بعد أن أطلع الطبيب على حالته وصف له مجموعة من الأدوية التي يتناولها على فترات منتظمة ومحددة، ثم نبه ياسمين إلى خطورة ما تنوي فعله، طالبا منها أن تبقيه في العيادة، ولكنها ضغطت على يد وائل الذي كانت تمسكه بين يديها ثم قالت في ثقة:

- لو سمحت دكتور نريد خطة علاج ليسير عليها في المنزل، زوجي وأنا فكرنا جيدا واتخذنا قرارنا.

قال الدكتور في تحذير:

- ولكن مدام أريد أن أحذرك مرة أخرى إلى خطورة النوبات التي سيتعرض لها بسبب انسحاب السموم من دمه والتي قد تكون خطيرة عليك، كما أنه قد يتعرض لأعراض خطيرة قد تصل إلى الاختناق.

نظرت إلى وائل في ثقة قائلة:

- سيكون كل شيء بخير.

ولكنه لم يكن مركزا معها إذ كانت الأعراض تشتد عليه أكثر، وكان يقاوم حتى يمنع ارتجافات جسده ورغبته الشديدة في التقيؤ.

قال الطبيب في عملية:

- حسنا مدام، أنت طبيبة نفسية وحتما تعين جيدا تبعات هذا الأمر، لهذا سأترك الأمر لك، ولكن رغم هذا سأرسل معك فريقا طبيا صغيرا ليرافقه في أول أسبوع، ثم يمكنك تدبر الأمر وحدك.

هزت رأسها موافقة بعد أن اقتنعت بكلامه ثم شكرته وسحبت وائل الذي كان شبه غائب عنها وخرجا من المكتب.

وصلا إلى الشقة وهناك أمام الباب كان والدها ينتظرها مع قصي، شعرت بقلبها يكاد يهوي عند قدميها فقالت في حذر:

- أبي هل كل...

لم تكد تكمل جملتها حتى هوى على خدها بصفعة أفقدتها توازنها، كان وائل بجانبها يجاهد حتى لا يركض لتعاطي تلك الحقنة، وعندما رأى تصرفه تجاهها لم يتمالك نفسه فدفعه إلى الجدار أمامه وخنقه بيديه، كانت أنفاسه تتلاحق والعرق يتصبب من جبينه، فقال بصوت مختنق:

- لا تلمسها!

صرخت في فزع قائلة:

- وائل إنه أبي!

احـــتـــيـــاج

أبتعد عنه بصعوبه وما كاد يفلته حتى لكمه قصي على وجهه عدة مرات حتى أوقعه أرضا، أراد أن يقوم ليفصل رأسه عن جسده كان يشعر برغبة هائلة في تكسير كل ما تقع عليه عيناه، ولكن آلام جسده تضاعفت مع سقوطه فتكور على نفسه في ألم، سارعت إليه وساعدته على الوقوف، ثم فتحت باب الشقة وأدخلته بينما كان يقاوم بكل ما بقي له من قوة حتى يعود، أدخلته إلى الغرفة أمام أنظار قصي ووالدها المصدومة ثم أغلقت بابها خلفهما احتضنته محاولة تهدئته، بينما كان ينتفض بين يديها محاولا الخروج، قالت بصوت مهزوز:

- وائل أرجوك اهدأ، اهدأ..

ولكنه دفعها عنه لتقع على الأرض، استوعب ما قام به فأسرع إليها ليقيمها قائلا:

- آسف، آسف، لم أكن أقصد.

قالت مطمئنة إياه:

- لا بأس أنا بخير.

ثم أحاطت وجهه بيديها قائلة:

- وائل أرجوك عدني بأن تبقى هنا حتى أنهي حديثي مع والدي.

أشاح بوجهه في رفض فكررت بنبرة متوسلة مست قلبه:

- أرجوك!.

احـــتـــيـــاج

وافق على مضض مقاوما رغبة عارمة في إحراق كل من تسول له نفسه الاقتراب منها أو محاولة أخذها منه، جلس على السرير بينما واصلت هي:

- أرجوك لا تخرج مهما سمعت، أنا سأتصرف.

ثم أردفت وهي تسند رأسها إلى رأسه:

- لن أتركك.

نظر إلى عينيها ليلتقط أمانه المعتاد فلم تبخل به عليه بل فاضت به عيناها بسخاء فأومأ برأسه ثم استلقى على السرير وهو يغمض عينيه بقوة.

خرجت من الغرفة لتجد والدها مع قصي ينتظرانها أمام باب الشقة فقالت في مرارة:

- هل علي أن أشكركما لأنكما تركتما لي بعض الخصوصية أنا وزوجي!

مشت إلى الصالة لتبتعد قدر المستطاع عن مدى سمعه فلحقا بها ليصرخ والدها في وعيد بعد أن خرج من حالة الذهول التي كانت قد شلته:

- ماهذا الذي تفعلينه بحق الله!؟

قالت بصوت خفيض:

- أبي دعنا نتحدث بهدوء كما تعودنا، أنا لا أريد أن تنتكس حالتك مرة أخرى.

قال بنبرة أشد:

- لو كنت تخافين علي حقا ما رميت بنفسك إلى هذا المستنقع.

احـــتـــيـــاج

نظرت إليه في لوم وكأنها تذكره بأنه لم يكن لها يد في كل الذي حصل، بل كانت ضحية ضحت بحياتها من أجله هو فقط، قرأ كل هذا الكلام في عينيها كالعادة فلانت نبرته شيئا فشيئا وهو يقول:

- لم يفت الأوان يا ابنتي، سنخلصك من كل هذا، قصي لديه خطة...

قاطعته في هدوء:

- أبي أنا لن أترك زوجي!.

قال بنبرة غاضبة، متجنبا أن يرفع صوته:

- ما هذا الهراء الذي تقولينه؟ هذا مجرد رجل سكير وبقاؤك معه خطر على حياتك!
- كنت أظن بأنك تثق في قراراتي!

رد عليها في هدوء:

- لطالما وثقت بك، ولكن قراراتك مؤخرا أصبحت غريبة، ولم أعد أثق فيها.

نظرت إليه طويلا قبل أن يردف:

- هل تظنين بأني كنت سأسمح بهذا الجنون لو عرفت به؟

تهدج صوته قبل أن يكمل:

- صدقيني كنت أفضل الموت ألف مرة على أن أسمح لك بذلك!

احـــتـــيـــاج

انهمرت دموعها تغسل صفحة وجهها النقية قائلة في حنان وهي تضمه إلى صدرها:

- لا تقل هذا مرة ثانية، ليت الله يأخذ من عمري ليزيده إلى عمرك.

ضمها إليه بشوق قائلا في عتاب:

- أيرضيك أن تعذبني هذا الشيخ في ما بقي له من أيام.

ضمته أكثر إلى صدرها وهي تشهق عاجزة عن الكلام، كانت تريد أن تطاوعه هي التي لم تعصه في حياتها ولكنها لن تخذل وائل أبدا، خاصة بعد أن استجاب لها وقبل العلاج، هو لم يعد يتحمل أي خذلان، أي تصرف غير واع منها سيقضي عليه لهذا لن تجازف به أبدا.

أبعدها عن صدره قائلا:

- ستعودين معي أليس كذلك؟

تنفست بعمق ثم قالت:

- أنا لن أتركه يا أبي!

تدخل قصي قائلا في غضب:

- ياسمين كفي عن التصرف كالأطفال ستذهبين معنا...

قاطعته في عنف وهي ترمقه بنظرات نارية:

- أنت بالذات لا تقل شيئا!.

احـــتـــيـــاج

نظر إليها مستغربا تغير أسلوبها معه فقال في لوم:

- أتقولين لي هذا من أجل ذلك السكير!

قالت في عتاب:

- سكير سكير سكير، كلكم تكررون نفس الكلمة، حتى أنا كررتها ذات يوم، ولكن هل شققتم على قلبه؟ هل اطلعتم على دواخله، ذلك الذي تصفونه بالسكير يملك قلبا أنقى من قلوبنا كلنا، كلكم ترون السكير ولكني لا أراه، أنا أرى رجلا بقلب طفل ولن أهدأ حتى انتشله من ضياعه وأمسك بيده لأخرجه من ظلامه!

هتف الحاج محمود في نفاد صبر:

- يكفي، لقد سمعت الكثير من الهراء اليوم، أنا لن أسمح ببقائك دقيقة أخرى هنا.

قالت في استنكار:

- لقد اتخذت قراري ولن أغادر بيت زوجي إلى أي مكان.

قال والدها في حنق:

- إذا ستتنسين بأن لديك أبا.

قالت في استياء:

- حتى إن علمت بأني حامل.

احـــتـــــيـــاج

شهق قصي في ذهول ثم تقدم نحو الغرفة قائلا:

- ذلك الوغد الحقير، أقسم بأني...

قاطعته صرختها:

- توقف حيث أنت، ولا تنس أنك تتحدث عن زوجي.

ثم التفتت إلى والدها بعيون متوسلة، انهار على الأريكة فأسرعت إليه تمسك يده بين يديها قائلة:

- أبي أرجوك.

نظر إليها نظرة طويلة وكأنه يحاول قراءة عينيها ثم قال بصوت مختنق:

- لماذا؟

ردت في نبرة متوسلة:

- صدقني هو ليس بذلك السوء، فقط ثق بي وسأبرهن لك ذلك.

عاد ليتفرس ملامحها مرة أخرى ثم قال:

- حسنا ولكن عديني بأن لا تكذبي علي مرة أخرى، ستخبرينني بكل شيء من الآن فصاعدا.

تنهدت في اطمئنان ثم قالت:

- أعدك.

احـــتـــيـــاج

كان قصي ينظر إليهما مشدوها غير مصدق أن الأمور آلت إلى هذه النقطة، لم يستوعب تغير أسلوبها معه، هي لا تتجاهله بل إنها لا تراه أصلا وكأنه شفاف، قال في نبرة متوسلة:

- أرجوك لا تقل بأنك قد وافقت على هذا الهراء الذي تقوله.

رفع يده في إشارة لإنهاء الحديث ثم قام من مكانه قائلا:

- سأثق فيك هذه المرة، ولكن إن خيبت ثقتي فيك فلن تناليها مجددا.

أومأت برأسها في سعادة ثم احتضنته مرة أخرى قائلة:

- سأكون عند حسن ظنك كما عودتك دائما.

ودعته ثم عادت إلى الغرفة لتكتشف بأنها خالية، اتجهت إلى الشرفة ظنا منها أنه هناك كعادته ولكنها لم تجده، خفق قلبها في خوف ثم اتجهت تلقائيا إلى درج الكومود لتكتشف بأنه كان فارغا، اتجهت إلى غرفة الملابس فكانت فارغة بدورها، فتحت باب الحمام بيد مرتعشة لتجده جالسا إلى جانب الحوض وهو يضغط على رأسه بيديه، كانت حالته مزرية حقا؛ عيناه جاحظتان قد احمر لونهما ووجهه شاحب ذابل، شعره ولحيته مشعثان، اقتربت منه بهدوء لتجده قد أغرق الحوض بالمحاقن ولفافات التبغ، اقتربت منه بحرص ثم جثت على ركبتيها أمامه وأمسكت وجهه بين يديها وضمته إلى صدرها بقوة، كان جسده يرتجف وأنفه يرشح، قالت له بصوت هامس:

- ماذا فعلت؟

احـــتـــيـــاج

رد عليها بصوت لاهث وأنفاسه تتسارع:

- تخلصت منها كلها.

ضمته أكثر قائلة:

- الطبيب قال أنه يمكنك التوقف تدريجيا.

رد عليها في تعب:

- لم أعد أريدها!

ربتت على ظهره بحنان قائلة:

- حسنا لنعد إلى الغرفة.

قال في حشرجة:

- اتركيني وحدي قليلا لست بخير.

كانت تلك أول مرة يصرح فيها بأنه ليس بخير لهذا تمسكت فيه أكثر قائلة:

- لن أتركك.

سحب نفسه من بين يديها وجر نفسه بعيدا عنها وهو يتلوى في ألم، كان يحك جسده بوحشية واضعا يديه تارة على أذنيه وتارة على رأسه وأخرى على بطنه وهو يئن في ألم، ثم قام متثاقلا ليبدأ بتحطيم كل شيء تقع عليه يداه وهو يصرخ بجنون قائلا:

- أخرجي!

احـــتـــيـــاج

ابتعدت عنه قليلا وهي تنظر إليه بإشفاق، كانت تريد ضمه إلى صدرها وإخفاءه بين ضلوعها ولكنه كان مخيفا لدرجة أنها أبعدت الفكرة بسرعة من رأسها ثم أمسكت بالهاتف واتصلت بالفريق الطبي، كانت تعليمات الطبيب تقضي بأن لا يتناول الأدوية إلا بعد 72 ساعة وهي كانت تعد الدقائق ليصل الميعاد، ولكن يبدو أن حالته هذه تستدعي التدخل الطبي فورا.

أخذت تراقبه من بعيد وهو يصرخ ويحطم كل ما وقعت عليه عيناه، تماما كوحش جريح، دمعت عيناها وهي تراقبه وفي داخلها يتنامى شعور غريب بين شفقة وإحساس عارم بالأمومة تجاهه، وكأنه في فترة قصيرة صار قطعة من روحها، فكرت في قصي؛ لم تشعر بشيء تجاهه اليوم، حتى مشاعرها اختفت فجأة وكأن قلبها لم ينبض بحبه يوما، كيف يمكن لمشاعر الإنسان أن تتغير بهذه السرعة وإلى هذا الحد!

بعد فترة شعر بالتعب فتهاوى على الأرض ثم تكور على نفسه وهو يئن في ألم، اقتربت منه بهدوء حتى لامست خصلات شعره ثم أخذت تداعبها في حنان قائلة:

- ستتغلب على كل هذا أيضا، فقط اصبر!

كان جسده يحترق من الحمى وأنفاسه تشتد حتى تكاد تمزق صدره، والأصوات تعلو في رأسه لتختلط بأشياء أخرى لم يفهمها، والرغبة في المخدر تتنامى حتى تكاد تحرقه، قال بصوت لم تكد تسمعه:

- أغلقي كل الأبواب، لا تدعي لي مخرجا.

احـــتـــيـــاج

قالت مطمئنة:

- حتى إن ضعفت سأكون أنا قوتك!.

وصل الفريق الطبي فقرر الطبيب بعد بعض الفحوصات أن يبدأ بإعطائه الدواء.

مر الأسبوع بطيئا ومليئا بالأحداث، كان وائل يحترق من الداخل والخارج، جسده يحترق طلبا للمخدر وروحه تحترق طلبا للراحة من ذنب لم يرتكبه ولكنه حمل نفسه إثمه كاملا.

وكانت ياسمين قريبة منه لا تبخل عليه بكلامها الذي كان كالبلسم على روحه، وحضنها الذي كان جنة يستكين فيها جسده بعد طول عذاب، كان يصرخ ويكسر ويعوي كذئب جريح، ثم ينهار على الأرض ما إن يتعب لتلتقطه ذراعاها بحنان.

تعرضت لأكثر من موقف خطير معه لدرجة أنه كاد أن يخنقها ولكنه تراجع في آخر لحظة وانهار بين ذراعيها، لم تكن لتبتعد عنه رغم كل هذا لأنها كانت متأكدة من أنه لن يؤذيها مهما حدث.

بعد أسبوع أسود لم ير وائل مثله في حياته قرر الطبيب أن السموم قد انسحبت من جسمه، ثم وصف لها خطة علاجية أخف معتمدا عليها في الجانب النفسي.

كان الأسبوع الثاني أخف عليه من الأسبوع الأول واختفت حالات الهيجان التي كانت تصيبه تدريجيا، ولكنه كان ذابلا متعبا وكأنه يحمل هموم الدنيا كلها على ظهره، متعبا ولكن غير قادر على النوم والراحة فيكتفي بالاستلقاء

احـــتـــيـــاج

مغمضا عينيه في ألم يحارب كوابيسه التي اشتدت ضراوتها بعد توقفه عن تعاطي المخدر.

كانت ياسمين تحتضنه كل ليلة وتحكي له قصصا كثيرة محاولة صرف انتباهه عن هذه الأفكار، أما في النهار فكانت تحاول شغله بمختلف الأعمال والأحاديث، كان يطاوعها ولكنها كانت تشعر أنه لا يتحسن أبدا لهذا فكرت أنه قد حان الوقت ليواجه ماضيه ولكن خطوة بخطوة كي لا ينتكس.

احـــتـــيـــاج

أنهت تحضير الغداء وانضمت إليه في الصالة لتجده نائما على الأريكة رفعت رأسه قليلا ثم جلست وأراحته على ركبتيها لتبدأ بالمسح على جبينه وصدغيه، بحركات دائرية مدروسة، فتح عينيه بعد مدة لتلتقيا بعينيها ابتسمت ابتسامة صافية قائلة:

- هل أيقظتك؟

هز رأسه بشكل خفيف قائلا:

- لم أكن نائما.

ابتسمت بعذوبة قائلة:

- في ماذا كنت تفكر؟

أغمض عينيه هاربا بهما من نظراتها التي تسحبه إليها قائلا:

- لاشيء.

قالت في حذر:

- ما رأيك أن تحكي لي عن طفولتك قليلا.

أغمض عينيه بقوة وقد تقلصت ملامحه بعنف، كان يريد أن يرفض ولكنه وجد نفسه يقول:

- لا أظن أن الحديث عنها سيعجبك.
- لا بأس إحك لي أريد أن أحمل بعض وزرها معك.

احـــتـــــيـــاج

غمزها في شقاوة قائلا:

- ولا تزر وازرة وزر أخرى يا دكتورة.

ابتسمت قائلة:

- خطأ في التعبير يا شيخ، نرجو منكم السماح.

ابتسم ابتسامة صادقة خفق لها قلبها، ابتسامته هذه حكاية أخرى ومن حسن حظها أنه لا يبتسم كثيرا، كان قد مر ثلاثة أسابيع على تقبله للعلاج، لهذا فكرت أنه ربما قد حان الوقت للحديث عن هذا الموضوع، قال بعد لحظات:

- لم أكن يوماً قريبا منها ولم تسمح لي أبدا بذلك، لم أذق يوما حنانها ورغم هذا وجدتني أرتبط بها، وكلما رفضتني أكثر تمسكت بها أكثر، كنت أسمع نحيبها كل ليلة قبل أن أنام، تمنيت لو أستطيع أن أمسح عنها حزنها، أن أحتضنها وأكفكف دموعها، كرهت والدي -رغم أنه كان يحبني- لأنني كنت أشعر أنه سبب حزنها، حاولت أكثر من مرة أن أقترب منها وكلما اقتربت نفضتني عنها في قرف وكأنني شيء قذر، ومع هذا لم أستطع أن أكرهها، نظراتها الحزينة الخائفة كانت تسحبني سحبا إليها، تدفعني دفعا لحمايتها، لم أكن أفهم ما ذنبي ولكني كنت راضيا رغم كل شيء، إلى أن جاء عمر فرأيت عينيها تفيضان بحنان لم أره من قبل، رأيت على شفتيها ابتسامة لم تَجُد بها من قبل، تساءلت أكثر من مرة إن كنت ابنها حقا، للحظات كنت أتمنى أن لا أكون، على الأقل كنت وجدت مبررا لكل هذا، كنت رحمت نفسي من تأنيبها كل ليلة على ذنب لم أرتكبه.

احـــتـــيـــاج

كانت نظراتها تدينني بأفعال لست أعلمها، وكأنها كانت تلومني على بؤس حالها، شيئا فشيئا أصبحت أرى نفسي مذنبا، حتى اقتنعت بأني سيء، في الأخير هي أم ولا يمكن أن تكره ابنها بلا سبب.

قالت في حذر:

- حدثني قليلا عن عمر.

تشنج جسده للحظة، فأردفت في حذر أكبر:

- حدثني عن لحظاتكما الجميلة معا.

أغمض عينيه ليغزو الألم ملامحه الوسيمة، ثم تنهد بعمق فقالت:

- لا بأس، لا داعي لهذا إن كان يؤذيك.

قال بصوت ضعيف غريب عنها وكأنه يأتي من مكان بعيد:

- تغيرت كثيرا بعد ميلاد عمر، لم تعد تبكي كما كانت، وغادر الحزن عينيها ليحل محله حنان غريب لم أكن لأخطئه -أنا الذي كنت أتعطش له-، أعطته كلما حرمتني منه بسخاء ومع هذا لم أكرهه بل...

توقف فجأة عن الكلام ليضع يديه على رأسه في ألم وهو يغمض عينيه بشدة، مسحت على وجهه بحنان ثم قالت في قلق:

- هذا يكفي الآن.

ولكن يبدو أنه لم يكن ليسمعها فقد أغمض عينيه بشدة أكبر وضغط على أذنيه بأصابع مرتعشة، فاقتربت من أذنه وهمست:

- لا بأس سيكون كل شيء بخير.

احـــتـــيـــاج

رفع إليها عينين ضائعتين فاحتضنت نظراته الضائعة بنظراتها الواثقة، ومسحت على خده بحنان قائلة:

- ما رأيك أن نذهب إلى المطبخ؟
- المطبخ؟
- نعم سنعد معا شيئا ما.

رمقها بنظرات متسائلة فقالت في مرح محاولة انتشاله من ذكرياته:

- ما رأيك في كعك بالشكلاطة؟

ابتسم ابتسامة شاحبة وقال:

- كعك بالشكلاطة؟ هل صدقت بأنني طفل حقا يا أستاذة.

بادلته ابتسامة مهلكة اضطرب لها قلبه قائلة:

- لست الطفل الوحيد هنا!.

وقبل أن يرد قامت ثم سحبته من يده إلى المطبخ.

بدأت باستخراج معدات التحضير بينما كان هو شاردا وملامح الألم تعود لتغزو وجهه، انتبهت إلى هذا فاقتربت منه واحتضنت وجهه بين كفيها قائلة في مشاكسة:

- هل ستساعدني أم أنك ستكتفي بالأكل كعادتك.

انتزع ابتسامة متعبة وقال:

- ماذا تريدينني أن أفعل؟

احـــتـــيـــاج

وما هي إلا لحظات حتى وجد نفسه يتفاعل معها، ويضحك لأول مرة في حياته ربما، هو لا يتذكر آخر مرة ضحك فيها، ولكنه وجد نفسه غصبا عنه يضحك عندما حكت له كيف كانت تسرق كعك الشكلاطة عندما كانت طفلة ثم تتلف واحدة وتضعها أمام القطة لتتهمها فيما بعد.

قالت وهي تتأمل ملامحه:

- هل أخبرك أحد من قبل بأنك تصبح وسيما جدا عندما تضحك؟

تجمدت ملامحه فجأة فمدت يدها لتربت بها على خده قائلة:

- لا تتوقف عن الضحك أبدا.

لم يجبها بل اكتفى بابتسامة مريرة فمسحت على وجهه أكثر قائلة:

- سنتجاوز هذا أيضا.

نظر إليها نظرة طويلة ثم اقترب منها وأسند رأسه إلى رأسها وأغمض عينيه وهو يتنفس بعمق ويشد على ذراعيها بقبضته، كان يريد أن يطلب منها بل أن يترجاها أن لا تتركه، أن لا تبتعد عنه خطوة واحدة لأنه حينها سيضيع، سيبرد من جديد، كم يحب عندما تتكلم بصيغة الجمع فتجمع ذاتها بذاته مستخدمة حرف النون بدل حرف التاء، أراد أن يخبرها بكل هذا ولكنه اكتفى بالضغط على ذراعيها أكثر، ولكن كل هذا لم يغب عليها أبدا، هي التي كانت تقرؤه ككتاب مفتوح، فقالت مطمئنة:

- لن أتركك أبدا.

احـــتـــيـــاج

ارتعشت يداه لجملتها وارتخت قبضته، لابد أنها تقول هذا بدافع الواجب لا غير، وهو لن يقبل بأن تضيع حياتها من أجله وهي التي ضحت بالكثير من قبل، لهذا قال بصوت مهزوز:

- تعلمي أن لا تضحي بسعادتك من أجل أي شخص دكتورة، سأكون بخير لا تقلقي، لن أضيع الطريق بعد أن وجدته أبدا.

ثم عاد ليشد على ذراعيها أكثر وهو يضغط برأسه على رأسها قائلاً:

- يمكنني أن أقنع مدام هدى بأن تسح...

قاطعته بحزم قائلة:

- لن أتركك أبدا!.

ثم أمسكت بيده بين يديها ووضعته على بطنها لأول مرة قائلة:

- سنتجاوز كل شيء معا لنكون لائقين به!.

ارتجفت يده على بطنها فضغطت عليها لتثبتها قائلة:

- لن تهرب بعد الآن، لا أحد منا سيهرب، سنكون بحجم مسؤوليتنا...

قاطعها في مرارة:

- لا تهلكي نفسك بالمسؤوليات دكتورة، سنكون بجانبه حتى وإن لم نكن معا.

ضمت يده إليها أكثر وقالت مطمئنة:

- ليست مسؤولية بل رغبة، أنا أريد...

احـــتـــيـــاج

ثم أردفت بحذر:

- أن أكون معك في طريقك هذا للأخير.

ثم ضمته إلى صدرها الذي كان يضطرب بمشاعر متضاربة، لا تعلم لماذا قالت هذا، هل تريد حقا أن تكون معه للأخير؟، لم تفكر يوما بهذا ولكن كلامه عن فراقهما أخافها!

اتخاذه لقرار كهذا يعني أنه قد بدأ بالتعافي، ولا تدري لماذا أشعرتها هذه الفكرة بالخوف، ها هو يعطيها مفتاح سجنها الذي لطالما تمنته وبدل أن تقبله وتطير فرحا به رفضته!

مشاعر غريبة بدأت تتنامى داخلها وتكبر شيئا فشيئا كطفل صغير يتعلم الحبو، مشاعر بدأت تتحول من الشفقة والإحساس بالأمومة إلى مشاعر أخرى يختلط فيها الاعجاب بالشفقة بالخوف عليه ثم بالخوف من خسارته أخيرا!

احـــتـــيـــاج

مرت الأيام التالية بردا وسلاما عليهما، إذ بدأت صحته الجسدية تتحسن شيئا فشيئا، خفت آلام جسده حتى كادت تختفي وتخفف من بعض تعبه فعادت ملامحه مشرقة كما لم ترها من قبل، رغم بعض الحزن الذي يكتسي ملامحه من وقت لآخر، تغيرت طريقته في الحديث معها فأصبح يمازحها ويشاكسها من حين لآخر، حتى إنه صار يضحك في بعض الأحيان لتشرق عيناه بلمعة ساحرة سرعان ما تختفي، وكان قلبها يخلق ويتشكل من جديد على يديه، فتفرح لفرحه وتحزن لحزنه وكأنه بضعة منها، ولكنه صار يبتعد منها وعاد ليهرب من أحضانها وكأنه خائف من شيء ما.

عاد للنوم على الأريكة مرة أخرى وكأنه يخجل من كوابيسه التي لا تتركه حتى يستيقظ فزعا كل ليلة ولا يهدأ حتى تأخذه في حضنها، أصبح يتخذ قرارات كثيرة مؤخرا وهذا ما يوحي بأنه تخلص من إدمانه تقريبا، وقد كان هذا يخيفها بقدر ما كان يريحها!

مجرد التفكير في أنه قد يبتعد عنها يوما تفزعها، هي التي كانت ترى بقاءها معه واجبا يجب عليها أداءه، أصبحت تراه اليوم حاجة ملحة تزداد كل يوم، تعودت عليه لدرجة أنها لم تعد تتخيل حياتها بعيدة عنه، تعودت عيناها أن تصحو على ملامحه المتعبة بعد ليلة قضاها ينازع ذكرياته، تعودت أصابعها على منابت شعره المشعث، وتعودت يداها على ملامح وجهه التي تتلمسها باشتياق غريب ما إن ينام، تعودت أذناها على صوته الضعيف تارة والقوي تارة أخرى، وتعود صدرها على أنفاسه التي تحرقها، فما باله يهرب منها مجددا مخلفا في قلبها فراغا كبيرا عجزت عن سده، هل آن لها الآن أن تقول إنها تحتاجه كما يحتاجها أو ربما أكثر!.

احـــتـــيـــاج

عند هذا الخاطر قامت من فراشها وهي عازمة على وضع حد لكل هذا، لن تسمح له بأن يبتعد عنها مرة أخرى، ستكون بجانبه حتى وإن كان هذا رغما عنه، اتجهت إلى الصالة ومدت يدها لتشغل الإضاءة لتجده نائما على الأريكة كعادته، اقتربت منه وجثت على ركبتيها أمامه تمسد على ملامحه بحنان، كان قد حلق لحيته الكثيفة لتبرز ملامحه اللاتينية الآسرة أكثر، لا تعلم كيف تحولت مشاعرها معه إلى هذه الدرجة، كانت مشاعرها تتدرج معه وكلما اقترب للشفاء أكثر اقتربت مشاعرها لل... للحب أكثر!

خفق قلبها بعنف عند هذا الخاطر فنفضت رأسها بعنف وكأنها تريد إخراج هذه الأفكار من رأسها، تاهت أكثر في ملامحه لتنساب أصابعها على جبينه وخده وأنفه الأشم، ثم شفتيه! شعرت بالخجل مما تفعله وعندما أرادت سحب يدها أمسكها بلقطة خاطفة وأعاد وضعه على وجهه قائلا بصوت ناعس:

- لماذا توقفت!

تضرج خداها في خجل فقالت محاولة تغيير الموضوع:

- متى استيقظت!

ابتسم في شقاوة قائلا:

- منذ أن بدأت أصابعك الحلوة بتلمس وجهي.

ثم أمسك يدها مرة أخرى وضمها إلى شفتيه بقوة دون أن يقبلها، ضل لثوان يضمها بينما كاد قلبها يكاد يخرج من مكانه حتى خافت أن يمتد صوت خفقاته إليه، قالت في عتاب:

- ألم يتعب جسدك بعد من هذه الأريكة؟

احـــتـــيـــاج

نظر إليها مطولا ثم قال:

- أحاول أن أترك لك بعض الخصوصية.

ابتسمت بعفوية ثم قالت:

- ستقوم معي إلى الغرفة، جسدك مازال متعبا وأنت تهلكه بنومة مثل هذه!

أمسك يدها قبل أن تقوم وعاد ليسحبها لتجلس مرة أخرى، ثم نظر إلى عينيها لتأسره سهامها اللازوردية قائلا بصوت غريب:

- ما أنت؟

قالت في همس:

- ياسمين!

اتسعت ابتسامته قائلا:

- بل ملاك، ملاك مَنَّ الله علي به ليخلصني من الجحيم.

مسدت على خده بحنان قائلة:

- لا أحد قادر على تخليصك من جحيمك إلا أنت، ما أنا إلا سبب فقط.

قال في همس:

- أحلى سبب.

شعرت بالراحة لانطلاقه بالحديث معها هكذا رغم الخجل الذي كان يعتريها، رغم بساطة ما قاله إلا أنه أربكها، هو رجل يعطي القليل، والقليل منه يكفيها!

احـــتـــيـــاج

قال بصوت هامس انتشلها من أفكارها:

- أنا حقا لا أعرف كيف أشكرك على كل ما فعلته من أجلي.

قالت:

- يمكنك أن تشكرني بطريقة واحدة فقط.

نظر إليها متسائلا فأردفت وهي تمسح على مكان قلبه:

- أن تفتح لي قلبك!

قامت من مكانها في خفة ثم مدت له يدها فأمسكها وقام معها إلى الغرفة، استلقت إلى جانبه على السرير دون أن تقول شيئا ليبدأ هو بالكلام:

- جاء عمر إلي في تلك الليلة يطلب أن ينام معي، كانت أول مرة يطلب فيها طلبا كهذا ولكني لم أقبل لأن مدام هدى ما كانت لتسمح بذلك أبدا، طلبت منه بلطف أن يعود إلى غرفته بعد أن طمأنته، بعد أن عاد بدقائق قال إياد أنه يريد الخروج للتدخين كعادته، انتظرته أن يعود ولكنه تأخر على غير العادة، خرجت لكي أبحث عنه لأني كنت أعرف أن مدام هدى لا تطيقه ففكرت في أنها ربما قد تسمعه بعض الكلام أو تطرده، بحثت في الحديقة فلم أجده، ثم انتبهت إلى البيت فرأيت إنارة المطبخ مضاءة، خفت أن يكون قد تهور ودخل البيت وحينها لن ترحمه أبدا، دخلت إلى البيت في حذر بعد أن وجدت الباب مفتوحا، توجهت إلى المطبخ وقبل أن أصل سمعت صرخة عمر، خفق قلبي بشدة وركضت ناحية الصوت...

احـــتـــــيـــاج

تهدج صوته فاقتربت منه ومسدت على شعره بحنان قائلة:

- لا داعي لأن تكمل.

ضمها إليه بقوة غارسا وجهه في شعرها الغزير قائلا بصوت مخنوق:

- أنا السبب، أدخلت لصا قاتلا إلى البيت.

أخذت تمسد على ظهره بحركات طولية صعودا ونزولا محاولة تخفيف انقباض جسده قائلة:

- لم تكن تعلم بهذا.
- ولكني أدخلته وقتلت الشخص الوحيد الذي أحبني.

كان يجذبها إليه بقوة آلمتها ولكنها تحملت وقالت كاتمة ألمها:

- أي شخص غيرك كان ليفعل ما فعلت، أنت آويت شخصا يتيما ولم تعلم بأنه لص وهذا شيء جيد، هذا ليس ذنبك!

قال بصوت مرتعش:

- قتلته.. قتلته.. قتلته.

ضمته أكثر وهي ترفع صوتها ليعلو على صوته:

- لم تفعل.. لم تفعل.. لم تفعل.

ثم سحبت نفسها قليلا وأمسكت وجهه بين راحتيها قائلة:

- وائل اسمعني أنت لست قاتلا، هل تسمعني، أنت لم تفعل، لم تقتله، أنت قمت بشيء جيد، آويت شخصا يتيما وهذا شيء جيد، هل تسمعني!؟ هذا شيء جيد..جيد ..جيد.

احـــتـــيـــاج

كانت تكرر الكلمات الإيجابية لتزرعها في عقله الباطن، وتخرج منه الأفكار السلبية، ولكنه كان يردد بصوت ممزق بلا توقف وكأنما يكرر كلاما حفظه:

- قاتل.. قاتل..
- قتلته.. قتلته..
- أكرهك.. أكرهك
- ليتك أنت.. ليتك أنت..

ضمته إليها بقوة بينما وضع يديه على أذنيه وهو يصرخ:

- قاتل..قاتل
- قتلته..
- كان الوحيد الذي أحبك..

قالت هي بصوت أعلى:

- لست قاتلا.. لم تفعل.
- أنت فعلت شيئا جيدا، آويت يتيما، لم تكن تعلم هل تسمعني لم تكن تعلم.

كانت أنفاسه تكاد تمزق صدره والعرق ينضح من كل جسده، وكانت هي تضمه بقوة إليها محاولة إيقاف ارتجافات جسده، من قال أن النظريات تعالج دائما، أحيانا يفعل الحضن مالا تفعله نظريات علم النفس كلها، بعد دقائق طويلة استكان جسده ليبدأ بنشيج صامت، رفعت وجهه إليها فأشاح به بعيدا ولكنها عادت ورفعته إليها قائلة:

- ابك يا وائل، ابك كما لم تبك يوما، ابك نفسك وأخاك وأهلك وكل خيباتك، من قال أن الرجال لا يبكون، البكاء نعمة لولاها لقتلتنا أحزاننا، ابك كما لم تبك يوما، ابك.

احـــتـــيـــاج

سمح لعبراته أن تسيل لتغسل وجهه وصدره وقلبه، وقبل كل هذا روحه.

بعد فترة طويلة شعرت بجسده يتراخى وأنفاسه تنتظم، رفعت وجهه إليها ومسحت دموعه برفق ثم قبلت جبينه بحنان، وكأنه طفل صغير استكان بين أحضان أمه بعد يوم شاق من الركض.

احـــتـــــيـــاج

استيقظت في الصباح وهي عازمة على إكمال ما بدأته، ستجعله يواجه هذا الماضي قبل أن يهلكه، لهذا أجرت اتصالا سريعا ثم أغلقت الهاتف وانهمكت في تحضير الفطور، بعد فترة رن جرس الباب لتستقبل ظرفا كبيرا، فتحته لتواجه صور عمر بكل الأحجام والمقاييس، بدأت بتعليقها في كل ركن من أركان الصالة، دخلت مدام هدى بمشيتها المتعجرفة قائلة:

- تضرعي لربك أن يكون ما أحضرتني من أجله يستحق وإلا...

بترت جملتها وقد تصلب جسدها وتجمدت ملامحها وهي ترى صور عمر بكل الأحجام معلقة على الجدار أمامها، صور عديدة له في وضعيات مختلفة، صرخت في حدة:

- كيف تجرئين؟! من أين حصلت على هذه الصور!؟

نظرت إليها ياسمين في ثقة قائلة:

- ألست تريدين مني أن أعالج أخطاءك؟! إذا تحملي عواقبها حتى النهاية.

اقتربت منها لتصفعها ولكن صرخة وائل أوقفتها:

- مدام هدى ماذا تفعلين؟ أبعدي يدك عنها حالا!

نظرت إليه هدى مصدومة، هل هذا وائل؟ ابنها الذي لم يكن يتجرأ على رفع عينيه ليواجهها، نظرت إلى ياسمين في حقد قائلة:

- مالذي فعلته بابني أيتها العاهـ...

أسكتها صراخه:

- قلت توقفي مدام هدى.

احـــتـــيـــاج

نظرت إليه مصدومة ثم نقلت بصرها إلى الحائط لينظر هو بدوره، شعر بالصدمة تشل جسده، نظر إلى ياسمين في صدمة فقابلته بنظرة غريبة بين الثقة والإشفاق، تابعت عيناه كل الصور على الجدار لتنهال الذكريات بسياطها على رأسه بلا رحمة، أمسك رأسه بيديه وبدأ يضغط عليه، ثم على أذنيه، ثم صرخ صرخة عظيمة وسقط على ركبتيه وهو يضغط أكثر على أذنيه قائلا بصوت ممزق:

- يكفي.. يكفي .. أصمتوا.. أصمتوا.

اقتربت إليه ياسمين أمام ذهول مدام هدى ثم جثت على ركبتيها أمامه وهي ترفع صوتها ليعلو صوته:

- أنت لم تفعل هل تسمعني؟ لم تفعل!.
  أنت لست قاتلا، لم تكن تعلم، لم تكن تعلم!

ازدادت صرخاته أكثر وهو يردد:

- قاتل..قاتل.
- قتلته.. قتلته.
- أكرهك.. أكرهك.
- لماذا لست أنت.

كادت هدى تفقد توازنها من هول الموقف وهي تعي جيدا هذه الكلمات التي زرعتها في عقله زرعا تلك الليلة وهي تكررها في هستيريا، كانت جالسة في مكانها تنظر إليه وهو يمسك رأسه بيديه وهو يصرخ بكل ما أوتي من قوة بصوت مزق قلبها، هل فعلت به كل هذا دون أن تدري!؟

احـــتـــيـــاج

كان كلما كرر كلاما كررت عليه ياسمين عكسه، ثم قامت من مكانها واتجهت إلى هدى التي كانت متكورة على نفسها وهي تنظر إليه مصدومة والدموع تغرق وجهها، جثت أمامها وقالت:

- لا بد أن يسمعها بصوتك مدام هدى، ستمثلين نفس المشهد، ستجلسين نفس الجلسة وتقولين عكس الكلام الذي قلته له تلك الليلة.

نظرت إليها هدى غير مستوعبة كلامها والصدمة ما تزال تعلو ملامحها بينما صوت ابنها يكاد يمزق الجدران من شدة الألم.

كررت ياسمين في رجاء:

- أرجوك مدام هدى، هذه هي فرصتك إن كنت تريدين استرجاع ابنك.

سحبتها من يدها لتجلسها أمامه، كان صوته يمزق كل جزء من روحها وهي تنظر إليه في صدمة بينما يكرر هو:

- قاتل.. قاتل ..قاتل.

اقتربت منه أكثر وأمسكت بيديه اللتين كان يضعهما على أذنيه قائلة بصوت ضعيف:

- لست قاتلا.

قالت ياسمين:

- مدام هدى أرجوك أعيدي نفس الكلام بنفس الطريقة!

نظرت إليه للحظة ثم أمسكته من قميصه تهزه بعنف قائلة:

- أنت لست قاتلا، لست قاتلا!

احـــتـــيـــاج

ثم أخذت تضرب على صدره قائلة والدموع تخنقها:

- لا أريد أن تكون أنت لا أريد.. لا أريد.

توقف عن الصراخ وهو ينظر إليها بنظرة غريبة، فواصلت وهي تشد على قميصه:

- أحبك.. أحبك، هل تسمعني، أحبك.. أحبك.. أحبك.

ثم ارتمت على صدره وهي تشهق قائلة:

- أنا آسفة، أنا التي قتلتك دون أن أدري!

بقي جامدا للحظات وكأنه غير مستوعب ثم لف يديه حولها وعانقها وهو يبكي بين ذراعيها كما تمنى دائما.

كانت ياسمين تراقب المشهد والدموع تغرق عينيها هي الأخرى، لتهمس في اختناق:

- أنا آسفة حبيبي، آسفة.

نعم لقد اكتشفت الآن أنها تحبه، بل أنها ستموت حتما إن حصل له مكروه، خوفها عليه فاق كل توقعاتها، سماعها لصرخاته الممزقة قطع روحها، أسرعت لتنتزع صور عمر من الحائط ثم أخفتها تحت الأريكة وعادت لتراقبهما، كان كل واحد منهما يبكي الآخر بين ذراعيه.

بعد لحظات أبتعد عنها وهو يلهث ثم قام مبتعدا ليخرج من الشقة بأكملها، أرادت هدى اللحاق به ولكن ياسمين أوقفتها قائلة:

- دعيه، يحتاج لأن يختلي بنفسه بعض الوقت.

احـــتـــيـــاج

نظرت إليها في وعيد قائلة:

- أيتها المجرمة، أقسم لك أنه لو حصل شيء لابني فسوف أقضي عليك، لقد كنت غبية عندما سمعت كلامك وتركته لك كل هذه الفترة ظنا مني بأنك تعالجينه، أنا لم أر ابني في هذه الحالة من قبل.

ابتسمت ياسمين في إشفاق على حال هذه المرأة المريضة بغرورها وجهلها ثم قالت:

- لا تقلقي سيكون بخير، أنا أثق بهذا!

احـــتـــيـــاج

كان يشعر بسكون غريب في رأسه، كل هذه الأصوات التي كانت تمزقه اختفت فجأة مخلفة سكونا غريبا، مشى في الطرقات على غير هدى وهو يفكر في كل ما جرى فلا يكاد يميز شيئا، رؤيته لصور عمر أعادت عليه ذكرياتهما كلها؛ رآه بشكل واضح لأول مرة، سمع ضحكاته وكلامه المتعثر، ثم سمع صوت أمه يطرق رأسه بلا رحمة ولكنها كانت تقول غير ما كانت تقوله فيما سبق، هل كانت تقول هذا حقا أم أنه كان يحلم، هل كانت تقول له أحبك حقا؟

واصل المشي وهو يفكر لأول مرة في عمر دون أن يخاف ذكراه، يفكر كم اشتاقه، كم اشتاق ضحكاته ومشيته المتعثرة وصوته وهو يتعرف على حروف الهجاء لأول مرة، وجد قدميه تقودانه لأول مرة إلى قبره، ذلك القبر الذي رآه غداة دفنه من بعيد دون أن يجرؤ على الاقتراب، جثى على ركبتيه أمامه وأسند رأسه على الرخام الأبيض على حافة القبر ويده تعبث بالتراب وهو يتوقع أن تهاجمه تلك الأصوات بضراوة ولكنه تفاجأ بسكون رهيب، فقط كان يستشعر قبضة تشد على قلبه، قال بصوت متحشرج والدموع تنساب على وجنتيه:

- اشتقتك يا أخي!

كان صوت عمر يتناهى إلى سمعه وكأنه يراه، صرخاته الفرحة وهو يصطاد فراشة لأول مرة، ضحكاته عندما يدغدغ بطنه، ثم بدأت أصوات كثيرة تتصارع داخل رأسه ليعلو صوت واحد عليها كلها، كان صوت مدام هدى وهي تصرخ:

- لست قاتلا.. لست قاتلا.

احـــتـــيـــاج

أغمض عينيه بقوة ثم عاد ليفتحهما من جديد قائلا:

- لم أكن أريد لهذا أن يحدث صدقني، لو كان بيدي لزدت من عمري إلى عمرك.

أضاف بصوت خافت وكأنما أراد أن يختصه بهذه الكلمة دون غيره:

- أنا أحبك.

ثم أردف بهمس أكبر:

- لا تخف لن أغيب عنك مرة ثانية، سأزورك دائما.

قام من مكانه عائدا إلى الشقة وهو يشعر براحة كبيرة لم يشعر بمثلها من قبل، ياسمين كانت محقة من البداية، لم يكن ليعيش قبل أن يسامح نفسه، لهذا قرر أن يسامح ليعيش وكأن حب الحياة استيقظ في قلبه فجأة!

احـــتـــيـــاج

دخل الغرفة ليجدها مستلقية على السرير استلقى إلى جانبها وبعد تردد دام لحظات سحبها إليه واحتضنها غارسا وجهه وسط خصلات شعرها الغزيرة وهو يستنشق بقوة عطر الليمون في شعرها.

ظلت لثوان جامدة ثم أحاطته بذراعيها وقلبها يخفق بجنون، متى كبر حبه في قلبها إلى هذا الحد، إن كان هذا هو الحب فهي تكاد تقسم أنها لم تذقه من قبل، قالت بعد صمت طويل:

- أنا آسفة.

لم يرد بل اكتفى بضمها إليه أكثر، لطالما كان الحضن لغة تواصل بينهما، فهل يحدث أن تبدأ حياة شخص بحضن وتنتهي إليه!

ظل صامتا فقالت مرة أخرى:

- أرجوك لا تصمت قل شيئا.

قال في همس ووجهه ما يزال بين خصلات شعرها:

- لا أريد أن أقول شيئا.

ثم أردف:

- كلانا لن يقول شيئا الليلة!.

ثم ضمها إلى صدره أكثر، تفهمت قراره وظلت لساعات تربت على ظهره، بينما كانت تشعر بأنفاسه المضطربة تحرقهما معا، قالت بعد فترة:

- ألن تنام؟

احـــتـــيـــاج

لم يرد بل رفع رأسه ليضعه على صدرها فتسللت أناملها ببطء إلى منابت شعره، أخذت تدلك رأسه بحنان حتى شعرت بأنفاسه المضطربة تنتظم، عدلت من نومه وماهي إلا دقائق حتى نامت هي الأخرى.

استيقظ بعد ساعات على حلم جميل يراه لأول مرة بعد سنوات من الكوابيس، رأى عمر الليلة بأوضح صورة منذ أن بدأ يراه في أحلامه، كانت عيناه زمرديتين صافيتين وابتسامته عذبة جميلة، جالسا في مرج أخضر جميل حاول الدخول إليه ولكنه لم يستطع، طلب من عمر مساعدته ولكنه قال له:

- أنت لن تستطيع الدخول إلى هنا الآن.

فرد عليه هو في حيرة:

- متى سأستطيع إذا؟
- يوما ما ولكن عليك أن تحافظ على هذا سليما.

قالها وهو يشير إلى مكان قلبه بيديه، ثم قال وقد بدأت صورته بالتلاشي تدريجيا:

- وائل أنا أحبك تذكر هذا دائما.

قام من مكانه سعيدا واتجه إلى الحمام توضأ ثم صلى ركعتين ورفع يديه لأول مرة ليدعو، دعا الله كثيرا ولم يقاوم رغبته في البكاء لأول مرة فبكى تاركا دموعه تغسل قلبه، لم ينتبه لها عندما قامت من مكانها وجثت أمامه قائلة بصوت مرتعش:

- وائل هل أنت بخير؟

احـــتـــيـــاج

نظر إليها ليجد الدموع تغرق وجهها هي الأخرى، مد كل واحد منهما يده ليمسحها عن الآخر، قال في حنان:

- لا تقلقي أنا بخير.

ثم أردف:

- أنا لم أكن في حياتي بخير مثل هذه اللحظة.

قالت بصوت مختنق:

- أنا آسفة!.

ثم أسندت رأسها على صدره وأخذت تضرب به عليه قائلة بصوت متقطع من أثر البكاء:

- آسفة..آسفة..آسفة.

ضم رأسها إلى صدره قائلا:

- لست غاضبا صدقيني أنا...

قاطعته بصوت ممزق:

- هل تعتقد بأني كنت سعيدة بما حدث، صرخاتك كانت تمزق قلبي، تقطع روحي، لم أكن أريد لهذا أن يحدث ولكنه كان الحل الوحيد لأخلصك من عذابك...

قاطعها بصوت هامس وهو يمسح دموعها:

- هسس هذا يكفي الآن، صدقيني أنا بخير...

احـــتـــيـــاج

قاطعته مرة أخرى وهي تضرب بكفيها على صدره بلطف:

- لا تتركني مرة ثانية، لقد كدت أموت خوفا عليك اليوم.

ابتسم في حنان قائلا:

- كل هذا الخوف علي أنا؟!

نظرت إليه نظرة عتاب قائلة:

- هل تظن أني لا أملك قلبا؟، هل تظن بأني حجر؟

لقد كنت أموت في كل دقيقة وأنا أتخيل أن مكروها أصابك، صدقني لو حدث لك شيء ما كنت لأسامح نفسي...

ثم عادت لتدفن رأسها في صدره قائلة:

- مالذي فعلته بي؟

كان مصدوما من ردة فعلها الغريبة التي لم يتوقعها أبدا فقال في حيرة:

- مالذي فعلته!

رفعت رأسها إليه ثم قالت بصوت مبحوح:

- أحبك أيها الأحمق، أحبك ولا أستطيع العيش دونك، لا أدري متى حدث ولا كيف حدث، ولكني...

ثم قامت من مكانها مبتعدة فقام بدوره وسحبها إليها لتلتقي شفاههما في قبلة طويلة عنيفة مزقت عذرية شفتيهما وأذابت شغاف قلبيهما، قبلة باح كل

احـــتـــيـــاج

واحد فيهما من خلالها عن حبه وضعفه واحتياجه، قبلة استمرت لدقائق طويلة لتزيل شوقا مستعرا داخلهما انفجر فجأة كطوفان يكاد أن يبتلعهما.

سحب نفسه عنها بصعوبة وقلبه يكاد يخرج من مكانه، كانت أنفاسه تحرق صدره ودقات قلبه تقرع كطبول، ضغط على قبضته بقوة ثم خرج من الشقة وهو يلوم نفسه على ما فعل؛ هو رغم كل شيء لا يستحقها، لا بد أن كل ما تشعر به تجاهه هو مجرد شفقة ليس إلا، شفقة ظنت هي أنها حب، إذ كيف ستحب هي المرأة الواثقة شخصا مهزوزا مثله، رأته في أسوأ حالاته وأشدها ضعفا!.

كيف سيمسح ذكرياتها عنه، تلك الذكريات التي يخجل حتى أن يتذكرها، لن يكون لائقا بها فهي تستحق رجلا بحق، رجلا يمنحها أمانا لا محدودا، لا رجلا ضعيفا مهزوزا معقدا تخلص للتو من إدمانه.

أما هي فكانت تعلم أن الطريق أمامها سيكون طويلا، صحيح أنها اجتازت أكثره ولكنها ستصبر وستعطيه وقته كاملا، ربتت بيدها على بطنها المنتفخة قليلا قائلة:

- سيعود إلينا لا تقلق.

احـــتـــيـــاج

حاول أن يجوب الشوارع كما تعود ولكنه لم يقدر، حياته لم تعد كما كانت أبدا، فكر في مستقبله وشعر لأول مرة في حياته أنه لا يريد أن يضيع هباءً، لهذا فكر في أن يذهب إلى الجامعة ليستعلم عن إمكانية عودته إلى الدراسة، كانت الأمور أسهل بكثير مما توقع، بسبب تفوقه السابق واسم والده الثقيل قبل طلبه في لمح البصر، بل شجعه رئيس الجامعة على أن يكون على رأس بعثة لإتمام الدراسة خارج الوطن بشرط أن يجتاز امتحانا كتابيا.

فكر كثيرا في كلامه فشعر أنه الحل الوحيد لحالته هذه، لا بد له أن يبتعد، أن يعيد بناء نفسه بعيدا عن ماضيه، ليعود إنسانا جديدا قادرا على البدء من جديد، ليس هروبا وإنما رغبة في البدء بعيدا عن كل المؤثرات، أن يعيد خلق نفسه وتشكيلها من جديد، ولكن ماذا عن ياسمين هل ستتقبل الوضع! ماذا عن ابنهما القادم والذي مازال يشعر بأنه غير مستعد إطلاقا ليكون أبا له، ثم ماذا عن أمه، لن تسمح له بالابتعاد عنها في آخر أيامها.

دخل إلى الشقة واستلقى على الأريكة يفكر كيف سيتعامل مع الوضع، فكرة السفر بدأت تكبر في رأسه شيئا فشيئا حتى شغلت كل تفكيره، كانت الساعة قد تخطت منتصف الليل عندما وصل لهذا قرر أن ينام على الأريكة.

استيقظ في الصباح على وقع لمسات أصابعها على وجهه، استسلم لهذا الشعور اللذيذ دون أن يفتح عينيه، ترددت يداها قليلا أمام شفتيه ثم عادت تبعدهما سريعا، تمنى لو يستطيع أن يأخذها بين يديه وينهل من شفتيها العذبتين حتى يروي شوقه الجارف إليها ولكنه كان يشعر أنه لم يكن جاهزا لكل هذا، لهذا تململ قليلا قبل أن يفتح عينيه ليقطع سيل المشاعر الذي بدأ يشعره بالضعف، فتح عينيه لثوان ثم عاد ليغلقهما فقالت بصوت هامس:

احـــتـــيـــاج

- صباح الخير.

تنهد بعمق قبل أن يرد:

- صباح النور.
- كيف أصبحت؟.

سحب الهواء بعمق أكبر ثم عاد ليغمض عينيه ويدفن رأسه في حضنها، أردفت بحذر:

- هل كل شيء على ما يرام؟

قابلها بالصمت مرة أخرى فقالت:

- بالنسبة للأمر الذي حدث البا...

قاطعها قبل أن تكمل:

- لقد ذهبت إلى الجامعة.

اتسعت ابتسامتها قائلة:

- هذا أمر رائع، وماذا حدث؟
- وافقوا على عودتي.
- ما المشكلة إذا؟ أليس من المفترض أن تكون سعيدا؟

ظل لدقائق طويلة صامتا يحتضن خصرها هاربا من نظرات عينيها فقالت:

- حسنا إذا سأذهب الآن إلى المطبخ، وسنتحدث عندما تجد نفسك جاهزا لذلك.

احـــتـــيـــاج

كانت تعد فطائر الكريب عندما دخل المطبخ ليقول بصوت غريب:

- أريد أن أسافر لأكمل دراستي في لندن.

سقطت الملعقة من يدها فالتقطتها محاولة مداراة توترها قائلة:

- ألا تستطيع إكمالها هنا؟

شد على قبضته في توتر قبل أن يقول:

- أستطيع ولكنني بحاجة...

ثم بتر جملته وأشاح بوجهه متظاهرا بترتيب الزهور في مزهرية كانت أمامه على الطاولة، ولكنها قرأت كل شيء في عينيه كعادتها؛ قرأت حاجته إلى الابتعاد لإعادة تكوين شخصيته بعيدا عنها وعن أمه وذكرياته وماضيه وكل شيء قد يؤثر به، وهي قررت أن تمنحه وقته للأخير، لهذا لن تحاول الوقوف في طريقه مهما كان قراره، قالت بعد مدة وهي تحيط خصره بيديها:

- سافر إن كان هذا سيجعلك أحسن!

شعرت بجسده يتصلب ولكنه حافظ على صمته فأردفت:

- أفعل كل ما تشعر بأنه صواب، وستجدني معك أدعمك دائما.

ثم شددت قبضتيها أكثر لتردف بصوت متحشرج هذه المرة:

- ستعود أليس كذلك!

لطالما وثقت في عودته كلما ابتعد ولكنها كانت خائفة هذه المرة، اتخاذ قرار كهذا يوحي أنه شفي تماما، وأكثر ما يخيفها في هذا هو شعوره بعدم الحاجة إليها بعد هذا، ماذا لو لم يعد يشعر بالاحتياج إلى حنانها وحضنها، ماذا لو

احـــتـــيـــاج

لم يعد يستجدي أمانها، ماذا لو كبر ذلك الطفل بداخله فجأة ليعلن تمرده على أمومتها!

شعر بدموعها تبلل ظهره فاستدار بلطف واحتضن وجهها بيديه ثم مسح عنها دموعها بحنان قائلا:

- لا تبك أرجوك.

ثم أردف:

- قلت بأني أريد ولكني لم أقل بأني سأسافر!.

رمقته بنظرات متسائلة فأكمل:

- لا أستطيع السفر وترك كل شيء خلفي، أنت وأمي و...

قالت وهي تمسك بيده لتضعها على بطنها:

- بل ستسافر من أجلي وأجله وأجل أمك وقبل كل هذا من أجل نفسك، ستسافر لأن هذا سيجعلك أحسن، سيجعلك تبدأ من جديد بعيدا عن كل ما يؤثر...

قاطعها في مرارة:

- ولكن...

وضعت أصابعها على شفتيه قائلة:

- ألم تقل لي من قبل لا تهلكي نفسك بالمسؤوليات يا دكتورة!، أنت الآن تهلك نفسك بها.

احـــتـــيـــاج

رفع يدها عن شفتيه ليضعه على قلبه قائلا:

- ولكن أمي مريضة...

قاطعته في حيرة:

- مريضة!؟

أومأ برأسه قائلا:

- مريضة بسرطان الدماغ في مراحل متأخرة جدا، ألم تخبرك؟

نظرت إليه والصدمة تعقد لسانها، إذا هذه هي الطريقة التي اتخذتها لتقنع ابنها بالزواج، هذه المرأة حية بجلد إنسان، قالت بعد فترة:

- شفاها الله وعافاها، ورغم هذا لا ينبغي لك ربط مستقبلك بأحد، تحدث معها قبل أن تتخذ قرارك.

اقترحت عليه بعد الغداء أن يأخذ قيلولة وبعد أن تأكدت من نومه ارتدت حجابها واتجهت إلى فيلا مدام هدى، وجدتها جالسة على الأريكة كعادتها، فقالت لها دون أن تنظر إليها:

- ماذا تريدين؟ لماذا أتيت؟

ضغطت على قبضتها بعنف ثم قالت:

- إما أن تخبريه أنت أو أن أخبره أنا.

احـــتـــــيـــاج

ردت عليه هدى في حدة:

- تخبرينه بماذا؟ هل جننت؟ ثم لماذا تخاطبينني بهذه اللهجة، هل نسيتِ نفسك؟

تجاهلت ياسمين كلامها وقالت في تحد:

- إما أن تخبريه بأنك تكذبين بشأن هذا المرض اللعين أو سأخبره أنا!.
- وما شأنك أنت في هذا، لا تدخلي بيني وبين ابني وإلا سأدمرك، هل تفهمين، هل نسيت بأن مستقبلك في يدي، بكلمة واحدة مني ستتعفنين في السجن!

قالت في سخرية:

- لا أظن أن مدام هدى بجلالة قدرها تريد أن يولد حفيدها في السجن.

نظرت إليها هدى في احتقار قائلة:

- أيتها العاهرة الحقيرة، انتظري حتى تضعيه وسترين مالذي سأفعله بك.

تجاهلت ياسمين تهديداتها وتقدمت لتجلس على الأريكة قائلة:

- أتظنين بأني أخاف السجن!؟ افعلي ما شئت ولكن قبل هذا أخبري وائل بكذبتك الرخيصة هذه، حرريه من سجنك، دعيه يعثر على نفسه بعيدا عنك وعن ذكرياته.

احـــتـــيـــاج

أكملت وقد تهدج صوتها رغما عنها:

- أما اكتفيت بعد من تعذيبه، وائل يريد أن يسافر وفي نفس الوقت لا يريد الابتعاد عنك ظنا منه أنك مريضة، ولكنك ستذهبين إليه اليوم لتخبريه بالحقيقة...

أجابت هدى في صدمة:

- يسافر!!، يبدو أنه ليس لوقاحتك من نهاية!، هل جننت كيف ستتركينه يسافر وهو قد شفي لتوه من إدمانه، تريدينه أن يعود إلى ما كان عليه بعد أن تخلص منه؟!
- أنا لن أمنعه من أن يبحث عن نفسه، أفيقي مدام هدى ابنك الآن رجل وليس ذلك الطفل الجائع إلى حنانك، هو يحتاج لأن يحقق ذاته، لأن يشعر بوجوده ولن يكون هذا إلا إذا ابتعد.

صمتت لتأخذ أنفاسها ثم واصلت:

- لا تخافي لن يعود، هو أذكى من أن يقع في شركها مرة أخرى.

قامت هدى من مكانها تقول في حدة:

- أنا لن أخبره وهو لن يسافر، افعلي ما تقدرين عليه، لدي كشوفات طبية أصلية ولن يصدقك ويكذبها.

ثم أردفت في غل:

- اخرجي من بيتي لا أريد رؤية وجهك !

احـــتـــيـــاج

تنهدت في استسلام ثم قامت من مكانها قائلة:

- أنت لن تستطيعي أن تسعدي في حياتك، أتدرين لماذا؟ لأنك لم تحبي أحدا في حياتك، أنت لم تفلحي في حب أحد إلا نفسك، جربي أن تحبيه قبل أن يفوت الأوان، لن يلبث أن يعرف وحينها لن يقدر على مسامحتك أبدا...

ثم خرجت وأغلقت الباب خلفها في عنف وهي تدعو الله أن تغير رأيها، صحيح أنها لا تريده أن يبتعد عنها ولكنها تريد من كل قلبها أن يحقق ذاته، أن يتصرف بعيدا عنها، أن يجرب شعور أن يعيش وهو متخفف من إثم ماضيه وقيود حاضره، ستتركه يذهب ليعود إليها كاملا غير منقوص.

عادت إلى البيت لتجده نائما حمدت الله لأنه لم ينتبه إلى غيابها وغيرت ثيابها ثم اتجهت إلى المطبخ لتعد وجبة العشاء.

بعد حوالي ساعة استيقظ ولحق بها إلى المطبخ، جلس على الطاولة فسألته بنعومة:

- هل نمت جيدا؟

قال بصوت ناعس:

- لم أنم كذا منذ زمن!

أردف بعد لحظات:

- ماذا ستعدين للعشاء؟
- أرز بالدجاج مع سمك مشوي.
- هل تريدين مساعدة؟

احـــتـــيـــاج

قالت في سعادة:

- طبعا!

انضم إليها وساعدها في شيِّ السمك بينما أعدت هي الأرز، ثم ساعدها في إعداد الطاولة وجلست يتناولان الطعام في سعادة وصفاء لم ينعما بهما من قبل، أنهيا العشاء فأعد الشاي بينما غسلت هي الصحون وهي تدعو الله أن لا تخيبها هدى.

انضمت إليه في الصالة بعد أن أنهت غسل الصحون، وما إن همت بالجلوس حتى رن جرس الباب، اتجهت لتفتحه باستغراب وكان الطارق آخر شخص توقعته، قالت في دهشة:

- مدام هدى!؟

نظرت إليها هدى شزرا ثم دخلت إلى الصالة، وقف وائل وحياها قائلا:

- مرحبا مدام هدى.

قالت بصوت مبحوح:

- مدام هدى! أمازلت تناديني بهذا الاسم؟

لم يرد عليها بل اكتفى بالجلوس، ولكنه لم يخفض رأسه كعادته بل قال في ثقة:

- اجلسي لا تبقي واقفة.

احـــتـــيـــاج

كانت ياسمين تراقب ما يحدث وهي ترجو الله أن تكون قد عادت إلى رشدها أخيرا وقررت قول الحقيقة، قالت هدى بعد صمت طويل:

- تغيرت كثيرا يا وائل، تغير فيك كل شيء تقريبا إلا معاملتك لي.

أشاح بوجهه عنها في عجز، جزء منه يريد الارتماء بين ذراعيها وجزء آخر ينهاه بشدة، قالت بعد ما قابلها بصمت طويل:

- على العموم أنا هنا لأمر آخر، هناك شيء أريد أن أقوله لك.

خفق قلب ياسمين خوفا من أن تثنيه عن عزمه، ولكن هدى خالفت كل ظنونها عندما قالت:

- وائل أنا لست مريضة سرطان، اضطررت لأن أكذب عليك حتى أجعلك تقتنع بكلامي، كنت أعلم بأنك لن تستمع إلي بغير هذه الطريقة لهذا فكرت في أنها الحل الوحيد لإقناعك.

نظرت إليه في توجس وهي تنتظر منه أن يثور، أن يصرخ، أن يطردها، ولكنه اكتفى بالإستماع إليها رغم ملامحه التي تقلصت في ألم لم يستطع إخفاءه، قال بعد مدة قصيرة:

- هل أنهيت كلامك؟

قالت بحذر:

- نعم لكن...

قاطعها بإشارة من يده قائلا:

- تصبحين على خير مدام هدى!.

ثم قام من مكانه متجها إلى غرفته، حاولت اللحاق به ولكن ياسمين أمسكتها من يدها قائلة في رجاء:

- أرجوك لا تضغطي عليه.

تسمرت في مكانها ثم التفتت إليها قائلة:

- لقد ربحت هذه المعركة ولكن هذا لا يعني بأن الأمر انتهى عند هذا الحد، صدقيني إن حدث له مكروه فسوف أدمرك دون أن يرف لي جفن!.

قالتها ثم اتجهت إلى الباب فأوقفتها ياسمين قائلة:

- شكرا لأنك خضت هذه المعركة بشرف.

أومأت هدى برأسها في شرود ثم غادرت، جمعت ياسمين كؤوس الشاي وأعادتهم إلى المطبخ ثم لحقت به إلى الغرفة.

وجدته مستلقيا على ظهره فاقتربت منه وتمددت إلى جانبه قائلة:

- هل أنت غاضب منها؟

قال بصوت جامد:

- لا أعلم!

ثم لانت نبرته قائلا:

- كيف من المفترض أن أشعر!

قالت بحذر:

- هي أم قبل كل شيء، والأم مستعدة لفعل أي شيء من أجل أبنائها.

احـــتـــيـــاج

ردعليها في تشتت:

- ما الذي يفترض بي أن أفعله؟
- أن تسامح!

ثم صمتت قليلا لتردف:

- أوأن تتركها للزمن فهو كفيل بها.

دفن وجهه في شعرها الغزير قائلا:

- سأسافر غدا.

كتمت آهة كادت تغادرها ثم قالت:

- ستكون بخير هناك، أنا متأكدة من هذا.

قال بنبرة ضائعة:

- سأبرد كثيرا هناك.

ربتت على ظهره بحنان قائلة:

- كلما شعرت بالبرد استعن عليه بذكرياتنا معا، وكلما هاجمتك ذكرى سيئة حاربها بذكرى جميلة فالحسنات يذهبن السيئات.

رد عليها ووجهه مازال بين خصلات شعرها:

- هل هذا من وحي علم النفس، أم من وحي ياسمينتي.

ابتسمت بسعادة لهذا الاسم الذي سماها به لأول مرة قائلة:

- بل من وحي ياسمينتك.

احـــتـــــيـــاج

ثم اتسعت ابتسامتها قائلة:

- اعجبني الاسم!.

رفع رأسه ليقابلها قائلا:

-أنت لن تكوني من اليوم إلا ياسمينتي!.

تعانقت نظراتهما للحظة فقالت عيناهما كل ما عجزت ألسنتهما عن قوله، ثم قال محاولا قطع هذه اللحظة قبل أن يضعف:

- غريب كيف تستطيع ذكرى أن تقتلك، بينما تستطيع ذكرى أخرى أن تحييك.

ردت عليه وهي تلقي برأسها على صدره:

- إذا تمسك بذكرياتك السعيدة كلها لتواجه بها وحشة أيامك.

مسد بيده على شعرها قائلا:

- شكرا على كل ذكرى جميلة منحتها لي.

لم ترد بل اكتفت بالصمت وهي تشد قبضتها على كتفيه، قال بعد دقائق طويلة:

- هل نمت؟

لم يأته رد منها فتأكد من ذلك قبل أن يقول:

- هذه أول مرة تنامين فيها قبلي؟ هل آلمتك إلى هذا الحد؟

احـــتـــيـــاج

مال برأسه نحوها وطبع قبلة على جبينها قائلا:

- أنا آسف، آسف على خذلاني لك، آسف على ضعفي، آسف على كل شيء.

ثم أردف وهو يضمها إلى صدره بقوة:

- لن أخذلك، سأعود لأنسيك كل شقائك بقربي، سأعود لأكون جنتك كما كنت دوما جنتي.

احـــتـــيـــاج

استيقظت قبله صباحا وأعدت له الفطور ثم عادت إليه لتوقظه بلمساتها الحانية على وجهه، فتح عينيه ببطء قائلا:

- صباح الخير ياسمينتي.

ردت قائلة:

- ألم تنس؟
- أنا لا أنسى شيئا يتعلق بك أبدا.

ابتسمت ثم قالت في بهجة:

- الإفطار جاهز.

قبل يديها في امتنان قائلا:

- سألحق بك حالا.

تناول إفطاره في شرود بينما اكتفت هي بمراقبته محاولة اشباع عينيها وقلبها من ملامحه، نظر إليها في حنان قائلا:

- لماذا لا تأكلين؟

قالت وهي ما تزال تتأمله:

- لست جائعة.

احـــتـــيـــاج

أكمل إفطاره ثم حمل حقيبته التي أعدتها له قبل أن يستيقظ ثم وقف يقابلها لتقول في عتاب:

- أمازلت مصرا ألا أرافقك للمطار؟

قال وهو يداعب وجنتيها:

- لا أضمن نفسي، سأغير رأيي وأسرقك بعيدا.

ابتسمت ابتسامة شاحبة وهي تقول:

- اعتن بنفسك وتناول طعامك بانتظام...

خانتها عبراتها قبل أن تكمل كلامها فضمها إليه بقوة قائلا:

- لا تفعلي هذا أرجوك، إن كنت لا تريدينني أن أسافر فقط قوليها ولن أفعلها أبدا.

كانت تريد أن تصرخ أن تقول له ألا يفعل، أن تمزق تذكرته إلى قطع صغيرة لتذروها الريح، أن تغلق الأبواب عليهما وترمي بالمفتاح بعيدا، ولكنها وجدت نفسها تقول:

- إياك أن تفعل، اذهب، سافر، حلق عاليا ولا تعد حتى تشعر باكتمالك، حتى تشعر بأنك قادر على أن تعتصر الماضي بين يديك دون أن يحرقك جمره...

كادت أن تخونها دموعها مرة أخرى ولكنها زجرت نفسها بقوة واكملت:

- لا تقلق سنكون بخير وسننتظرك.

احـــتـــيـــاج

أبعدها عن صدره ووضع يده تحت ذقنها ليرفع وجهها إليه قائلا:

- هل أخبرتك من قبل بأني أحبك؟

ربما لم أخبرك بها ولكن لا بد بأنك استشعرتها، لا بد أنك استشعرت ضعفي دونك واكتمالي بك، ربما لم أقلها بلساني ولكني متأكد من أن دقات قلبي جادت بها عليك بسخاء.

قالت محاولة قطع هذا الكلام الذي إن استمر فسيضعفهما معا ليضيع جهدهما هباءً:

- لم يبق الكثير على موعد رحلتك.

نظر إلى ساعته ثم قال:

- لن نقول وداعا لأننا سنلتقي عن قريب حتما.

ثم قبل جبينها بعمق وضمها إلى صدره بقوة قبل أن يغادر الشقة تاركا خلفه قلبه وروحه، عازما على العودة أقوى وأشد رسوخا، سيعود عندما يشعر بأنه أصبح يستحق ملاكا مثلها، سيعود عندما يكون قادرا على أن يقدم لها أضعاف ما قدمت له، سيعود عندما يجد نفسه قادرا على أن يقدم لها أمانا كاملا غير منقوص.

أما هي فانهارت على الأرض ما إن خرج وسمحت لعبراتها التي كتمتها منذ أيام بأن تنهمر كطوفان أغرقها...

احـــتـــيـــاج

للتواصل مع الكاتبة على فايسبوك:

https://m.facebook.com/profile.php?id=100072936634192

الإيميل:

sebazahra28@gmail.com

احـــتـــيـــاج

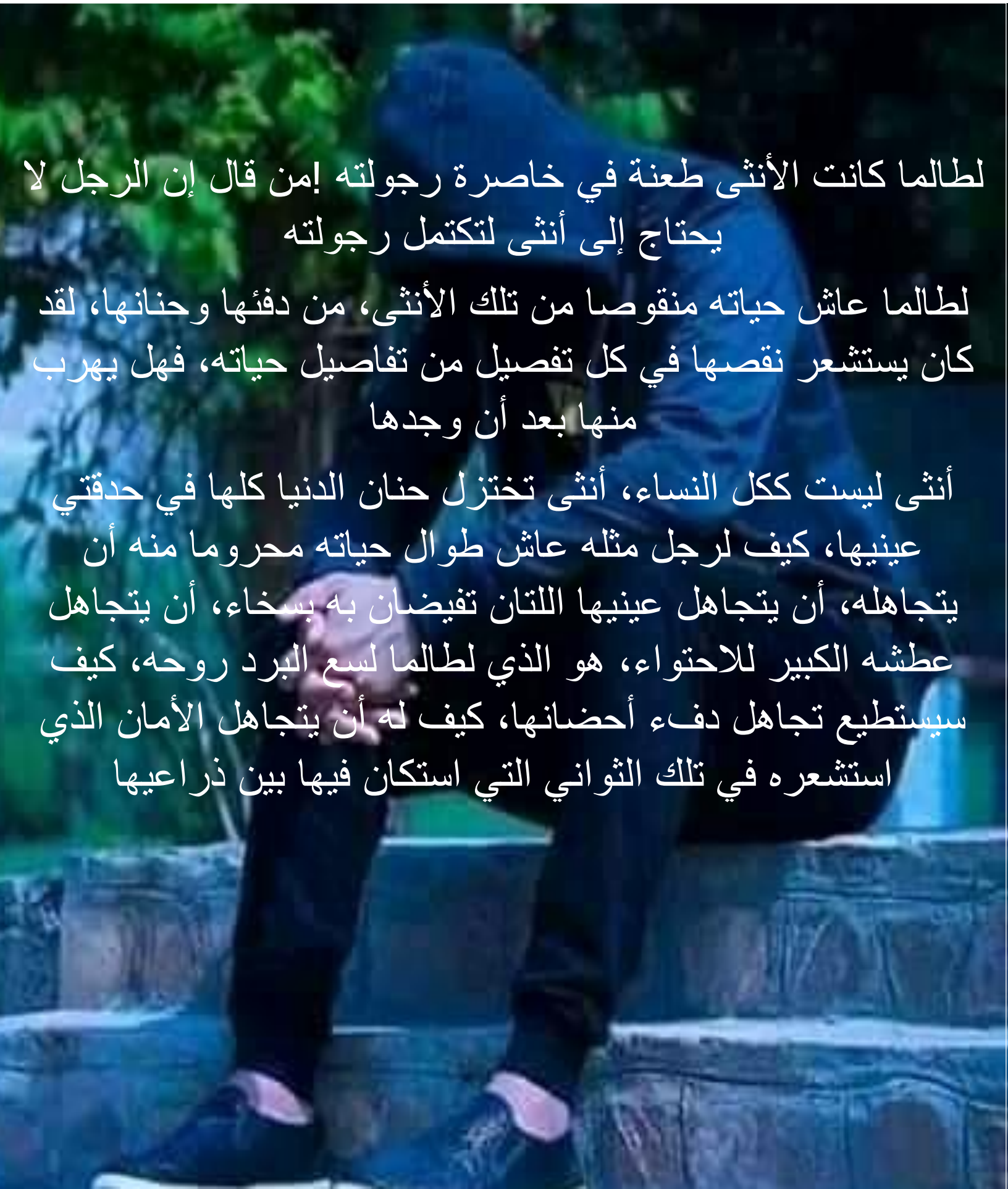

لطالما كانت الأنثى طعنة في خاصرة رجولته !من قال إن الرجل لا يحتاج إلى أنثى لتكتمل رجولته

لطالما عاش حياته منقوصا من تلك الأنثى، من دفئها وحنانها، لقد كان يستشعر نقصها في كل تفصيل من تفاصيل حياته، فهل يهرب منها بعد أن وجدها

أنثى ليست ككل النساء، أنثى تختزل حنان الدنيا كلها في حدقتي عينيها، كيف لرجل مثله عاش طوال حياته محروما منه أن يتجاهله، أن يتجاهل عينيها اللتان تفيضان به بسخاء، أن يتجاهل عطشه الكبير للاحتواء، هو الذي لطالما لسع البرد روحه، كيف سيستطيع تجاهل دفء أحضانها، كيف له أن يتجاهل الأمان الذي استشعره في تلك الثواني التي استكان فيها بين ذراعيها